

الباب الثاني

قيام الإمارات والدول وأحوالها وعلاقاتها السياسية والإدارية

ثمانية فصول

obeikandi.com

الفصل الرابع

إمارة بني مدرار في المغرب الأقصى

1- إمارة بني مدرار وتأسيس مدينة سجلماسة

2- العلاقات السياسية:

أ- بنوا مدرار والخلافة العباسية

ب- بنوا مدرار وبنو رستم

ج- بنوا مدرار والإمارات

obeikandi.com

الفصل الرابع

إمارة بني مدرار في المغرب الأقصى

(140-354هـ / 757-965م)

انتشرت آراء الخوارج الصفرية في بلاد المغرب في بداية القرن الثاني الهجري علي أيدي الدعاة العرب الخوارج الذين لجؤا إلي هذه البلاد وقد اتجهت الدعوة الصفرية إلي القبائل المغربية الغاربة في المغرب الأقصى و من زعماء القبائل الذين تيسر لهم الاتصال بهؤلاء الدعاة المشاركة ميسرة المطفري زعيم قبيلة مطفرة الذي كان قد تلقى العلم علي يد عكرمة بن عبد الله المغربي مولى عباس أحد فقهاء مكة وتابيعها وكان عكرمة بن عبد الله من أصل مغربي مما أتاح له نشر أرائه في هذه الربوع بأسلوب منظم قائم علي الدعوة السرية ومن الزعماء الآخرين الذين اتصلوا بعكرمة في القيروان أبو القاسم سمغوين واسول المعروف بمدرار شيخ قبيلة مكانسة الذي تبحر في دراسة آراء الخوارج الصفرية و أصوله وفروعه حتى وصف بأنه من مشاهير حملة العلم وانتشرت آراء الخوارج في قبيلة برغواطة علي يد طريف بن شمعون الذي إلتقي هو الآخر بعكرمة بن عبد الله في القيروان و في قبيلة زناتة التي ساهمت في الحركة السياسية التي قامت فيما بعد.

ويرد ما يشير إلي أن بعض المشاركة المقيمين بأفريقيا دانوا بآراء الصفريين، وكان هؤلاء قد تسربوا إلي بلاد المغرب بصحبة الجيوش القادمة من المشرق بهدف الفتح ولكن لم يكن لهم علي ما يبدو أي تأثير فكري أو سياسي يذكر.

ونتيجة لانتشار أفكار الخوارج الصفرية ومبادئهم في المغرب الأقصى لم تحجم جماعات الأفارقة الذين اختلطوا بالروم عن اعتناقهم لها علي يد زعيمهم عبد الأعلى بن جريج الذي تتلمذ علي يد عكرمة بن عبد الله في القيروان وكان هؤلاء الأفارقة أكثر تحضراً من غيرهم من السكان لكنهم أخذوا علي أمرهم مما ترتب علي تحولهم للصفرية نتائج مهمة في الصراع مع الولاة الأمويين الأواخر و الولاة العباسيين كما امتدت تعاليم الصفرية و أفكارها إلي جماعات من بلاد السودان

الذين كانوا يقطنون جنوب السودان و قد ارتضوا مباديء شيخ قبيلة مكانسة
سمغو بن واسول التي كانت تدعو إلى المساواة السياسية.
ويلاحظ مما عرضته المصادر، أن آراء الصفرية تغلغت في جميع أرجاء
المغرب الأقصى وبعض مناطق المغرب الأدنى وأفريقية والسودان في مدة قصيرة
إذا قورنت بآراء الأباضية في المغرب الأوسط. و قد اتخذت حركاتهم السياسية
طابعا عمليا إذا اتجهوا إلى المناطق الصحراوية النائية في المغربين الأوسط
والأقصى وعولوا على إقامة إمارتهم في جنوب المغرب الأقصى وفي منطقة إقليم
" تافيللت " بأقصى الصحراء من قصبة سجلماسة مركزاً لهم سنة 140 هـ / 757م.

إمارة بني مدرار و تأسيس مدينة سلجاسة

عول الخوارج الصفرية علي تأسيس مركز سياسي وعسكري لهم يكون بمثابة عاصمة ومعسكراً يستجمعون فيه قواهم الموزعة في مناطق مختلفة من المغرب و كان لابد لهذا المركز أن ينأى بعيداً عن سلطة الولاة العباسيين وعمالهم فاتجهوا إلي قسبة سلجاسة علي وادي نهر ملوية الذي يقع في إقليم (تافيلت) بأقصى الصحراء الكبرى.

وكان أبو القاسم سمغو بن واسول المكناسي المعروف بمدرار، قد حشد قبائل مكناسة وصنهاجة وزويلة وبعضاً من زنوج السودان والاندلسيين للإلهام في بناء مدينة سلجاسة و إقامتها غير انه قبل الشروع في العمل بادر إلي مبايعة عيسى بن يزيد المكناسي الذي كان من اصل سوداني ومن زعماء الصفرية البارزين في هذه المنطقة و حمل قومة علي طاعته لتمكينه في المشروع بتخطيط المدينة و بنائها و القيام بمهمة التجميع السياسي و العسكري المنشود و منذ سنة 138 هـ شرع في العمل و بعد سنتين اكتمل بناؤها و أتقنت أسوارها و قسمت مياهها من خلجان و غرست بالنخيل و كان سمغو بن مأمول في الأصل صاحب ماشية كثيرة ينتجع موضع سلجاسة و يتردد إليها و لذلك فهو يدرك أهمية موقعها من الناحيتين الاستراتيجية و الاقتصادية.

إن مبايعة قبائل الصفرية ليس بن يزيد المكناسي يمثل في حقيقته قوة عناصر السودان في داخل الحركة الصفرية في إقليم تافيلت و قد حدث ذلك في السنة التي اختطت فيها سلجاسة لتكون حاضرة للإمارة و مركزاً لقبائل الصفرية سياسياً و اجتماعياً لقد حرص الصفريون علي إنشاء مدينتهم في مكان حصين، اذ أقاموها وسط الصحراء جنوب تلمسان و في موضع التقاء فرعي نهر ملوية ثم أقاموا حصناً داخل المدينة أطلقوا عليه اسم " العسكر " كما أسسوا المسجد الجامع و دار الإمارة ثم بني الناس دورهم حول الحصن فاتسع العمران حتى جاورت المدينة فرعي نهر ملوية.

ومن الجدير بالإشارة إلي أن معماري الأندلس أسهموا في بنائها. أما سورها فقد ابنتى سنة 205 هـ و له اثنا عشر باباً، أهمها الباب القبلي والباب الغربي و باب غدير و باب الجزارين و باب موقف زناته و قد أصبحت سجلماسة بعد اكتمال بنائها ملجأ لجموع الصفرية و لجميع اللاندين بها و الهاربين إليها من أرجاء العالم الاسلامي، سواء من المغرب والمشرق و بذلك حققت أهدافها المرسومة لها سابقا علي يد زعيم مكناسة سمغو بن واسول في تجميع القبائل الموالية له و خلق كيان موحد لهم. غير أن أبا القاسم سمغو بن واسول لم يتول الحكم، بل عهد به إلي عيسي بن يزيد المكناس و قد حكم هذا الأخير خمسة عشر عاماً، ليس لدينا معلومات كافية عنها و الموجود منها يتسم بالإبهام وأكثره يجمع علي انه نتيجة لسياسته فقد سخط عليه أهل سجلماسة وانتفضوا ضده وقتلوه⁽¹⁾ وذلك لما أخذ انكروها عليه لا يتطرق المؤرخون إلي ذكر تفصيلات مهمة عنها ولعل انحرافه وإسرافه والاشتراط في أحكامه كان من الأسباب التي أدت إلى قتله بطريقة قاسية تنم عن التطرف والميل إلي العنف.

ويبدو أن عيسي بن يزيد لا يرقى إلي منزلة سمغو بن واسول من حيث السابقة في اعتناق الآراء أو الأفضلية في العلم، فتولي أمر سجلماسة و عكف طوال مدة حكمة 155-168 هـ - 772 هـ - 784 م علي إرساء قواعد إمارته ورأي انه ليس من الحكمة الوقوف من العباسيين وولاتهم و مالههم في المغرب موفقاً يتسم بالعداء، و ذلك و ذلك بغية انصرافه إلي حل المشكلات التي كانت تواجه إمارته و لضمان سلامتها وأمنها وتحقيق استقرارها في المنطقة، مما اضطره علي مسالمة الولاة العباسيين وربما وعدهم بتبعية اسمية مع الاحتفاظ بالاستقلال السياسي عن السلطة الخلافة وتأثيراتها؛ وأثمرت سياسة سمغو بن واسول و ساد الاستقرار في إمارته غيران ابنه الياس الملقب بالوزير الذي خلفه حاد عن أبيه فثار عليه أهل

⁽¹⁾ و جاء أهل سجلماسة قبضوا عليه و شدوا وثاقه إلي اصل شجرة في سفح جبل ثم ظلوه بالعسل و تركوه حتى قتله النحل والحشرات (ابن عذاري البيان المغرب ج 1 ص 152).

سجلماسة سنة 173هـ - وخلعوه ونصبوا أخاه إليسع الملقب بأبي المنصور 208/173 هـ.

ويمكن القول، أن اليسع بن سمغو المدراري هو المؤسس الحقيقي لإمارة بني مدرار فقد استطاع هذا الأمير أن يرسى دعائم إمارته ويكرس السلطة الكاملة لبني مدرار في سجلماسة التي أصبحت في عهده مركزا سياسيا مهما حيث أتم بناءها و تشييدها واختلط بها المصانع و القصور⁽¹⁾ و اتبع سياسة شديدة إزاء القبائل المعارضة لحكمة كما أولي اهتمامه إلى الحركة العمرانية في المدينة إلى إحياء لكل قبيلة حيها مما كان له اثر مباشر علي الأمن والاستقرار فيها كما ترتب عليه ازدهارها وتقدمها فأصبحت حاضرة و مركزا من مراكز الحكم القوية في بلاد المغرب الاسلامي.

وتولى بعد اليسع ابنه مدرار الذي لقب بالمنتصر وللأسف فإن المصادر لا تمدنا بمعلومات عنه سوى ما يتعلق بالصراع الذي نجم عن تولية ابنه ميمون "من زوجته أروى وهي ابنة عبد الرحمن بن رستم أمير الإمارة الرستمية المعاصرة لهم".

وكان ميمون هذا قد استبد بالأمر وأساء السيرة في رعيته فخلعة أهل سجلماسة ونصبوا أخاه الآخر ميمون "من زوجته تقيّة" ومكث الأخير يحكم الإمارة حتى سنة 263هـ وفي عهد ابنة محمد بن ميمون تفاقم خطر الفاطميين علي إمارة بني مدرار وبدأ يهددها بالقضاء عليها ولكن في عهد عمّة اليسع بن مدرار حال دون قيام الفاطميين بتحقيق أهدافهم حيث استطاع اليسع بن مدرار القبض علي عبيد الله المهدي منظم الدعوة الفاطمية ورأسها وابنة القاسم في مدينة سجلماسة وإيداعها السجن إلى أن زحف أبو عبد الله قائد الجيوش الفاطمية نحو سجلماسة و أسقطها و حررها من السجن سنة 290هـ.

(1) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدا و الخبر ج6، ص 268 .

غير إن السلطة في مدينة سجلماسة عادت مرة أخرى إلي بني مدرار حيث ثار أهل سجلماسة علي عامل الفاطميين و قتلوه و قدموا علي أنفسهم الفتح بن ميمون بن مدرار الملقب بالرسول سنة 298هـ ثم خلفه أخوه أبو العباس احمد سنة 300هـ و لكن الفاطميين أطاحوا به سنة 309 هـ ثم استمر الصراع حول السلطة بين أسرة بني مدرار إلي أن تولي محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار سنة 332هـ و تلقب بالشكر لله وقطع العلاقات مع الفاطميين و نبذ أراء الصفرية الخوارج وأخذ بمذهب أهل السنة وتسمي بأمير المؤمنين وكان الشاكر لله عادلا حسن السيرة و لكنه كان يمثل خطرا علي النفوذ الفاطمي في المغرب الاقصى وعلي الرغم من الحملة العسكرية التي جردها الفاطميون بقيادة جوهر الصقلي في خلافة المعز لدين الله و دخولها سجلماسة سنة 347هـ و قتلها الشاكر بالله فان السلطة السياسية في سجلماسة استمرت في بني مدرار حتى سنة 354هـ فقد حكم ولدا الشاكر وهما المنتصر بالله 347-352هـ و المعز بالله 352-354هـ

العلاقات السياسية

بنو مدرار والخلافة العباسية:

لقد انصرف اهتمام الخلافة العباسية وولاتها في القيروان إلي الاحتفاظ بأفريقية فأسقطوا أقاصي بلاد المغرب التي ينتشر فيها نفوذ بني مدرار من حسابهم بعد أن انسخت فعلا عن نفوذهم و ذلك بفضل النضال القاسي الذي قام به الخوارج الصفرية مع ولاء بني عباس و الذي استمر روحا من الزمن تعرضوا فيه إلي التنكيل من المطاردة والبطش ما أفضي بهم إلي الانطواء داخل بلادهم النائية ولم يكلفوا أنفسهم مشقة إعداد الجيوش من سجلماسة لخوض حروب مع الجيوش العباسية ربما تكون غير مأمونة العواقب ومن الناحية المبدئية فقد اتخذت العلاقات شكل عداء لم يصل إلي درجة معقدة يتطلب معها قيام الحروب بين المدراريين و العباسيين، وذلك لان كلا منهما شغل بمشكلاته الذاتية عن مناجزة خصمه وبمرور الزمن فإن الموقف العباسي اخذ يتسم بالاعتدال إزاء المدراريين.

ويخيل إلينا أن السبب في عزوف بني مدرار عن مناجزة العباسيين، ربما يقوم علي أساس أن الأمراء سجالمة هم بمثابة عمال للعباسيين وهم يعترفون بالتبعية لهم و يدعون إليهم أو انهم كانوا يدخلون في علاقات التبعية للعباسيين رويداً رويداً، أو كانوا يتبعون بغداد اسمياً و لعل المداريين إنما وقفوا هذا الموقف بسبب التهيب المشوب بالخوف من ولاة الخلافة في المغرب الاسلامي من أمثال يزيد بن حاتم⁽¹⁾ أو خلفائه ممن عرفوا بقوة البطش و ملاحقة حركات الخوراج إن قدام سمغو بن ماسول في إقامة الخطبة للخليفة أبي جعفر المنصور و ابنة المهدي من بني العباس في بلادة يدخل في إطار مبدأ (التقية) الذي تجيزه أراء الخوراج و تحاشيا لأخطار محدقة بإمارته و هي ما تزال بعد فتية.

ولكن ما دام العداء تقليديا و مستحكما بين العباسيين و الفاطميين فإن أية قوة في العالم الاسلامي تفادي احدي هاتين القوتين، لابد وأن يفهم إن موقفها من الطرف الآخر ودي وأن المصادر في الأقل توحى إلي هذا الفهم، إن بوضوح أو من طرف خفي، ولما تبين موقف بني مدرار المعادي للفاطميين، أوحى أن علاقاتهم كانت ودية مع العباسيين حتى أوصلتها بعض المصادر إلي حد التحالف بين الطرفين.

من المحتمل تقرب الشاكر لله احد أمراء المداريين من العباسيين ربما كان لغرض التآليب ضد الفاطميين و بخاصة عندما اخذ هذا الأمير بمبدأ أهل السنة و ضرب العملة باسمه و لقب نفسه بأمر المؤمنين و لكي لا يصح أن نوكد التعميم حتى ولو أشار القلقشندی إلي أن الشاكر لله " دعا لنفسه مموهاً بالدعاء لبني العباس"⁽²⁾

(1) وهو يزيد بن حاتم بن قصىة بن المهلب بن أبي الصفرة و هو أول وال في بلاد المغرب الاسلامي (انظر ابن عذاري - البيان المغرب ج 1 ص 87 ابن الخطيب أعمال الأعلام ج 3 ص 8-9 .

(2) القلقشندی، صبح الاعشي في صناعة الانشاج، ج5 ص167 .

أما حادثة وقوع عبيد الله المهدي ⁽¹⁾ رأس الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب و معه ابنه أبو القاسم ⁽²⁾ في قبضة اليسع بن أبي القاسم بن مدرار و إيداعه السجن في مدينة سجلماسة لا يعرف فيما إذا كان بإيعاز من الخلافة العباسية أو وفقاً لمشيتهم أو ترضية لهم أو كان الحادث عرضياً كما أنه لا يمكن أن تعتمد بعض الروايات المضطربة كذريعة للقول بأن العلاقات كانت ودية بين بني مدرار و بني العباس، لأن أمير سجلماسة اليسع بن أبي القاسم بن مدرار كان علي مذهب أهل السنة بما تدين به الخلافة في الوقت الذي كان هو علي مبدأ الخوارج ⁽³⁾.

ومهما يكن من أمر، فلا يصح اعتبار حادثة سجن عبيد الله المهدي قرينة علي توطد العلاقات العباسية المدارية، فأجراء اليسع بن مدرار لا يستهدف "مرضاة الخليفة" لأنه كان علي طاعته و لكن يمكن القول أن عبيد الله المهدي كان يمثل خطراً على سائر كيانات المغرب فضلاً عن أن اليسع بن مدرار كان معروفاً بالحذر والقوة وكان يستريب من أي داخل إلي حاضرتة أو مستجير بها أو لاثذ إليها، فلا بد أن يستوقفه فيما يقوم به عبيد الله المهدي من التجوال في بلدان المغرب الاسلامي وإغداقه الأموال والهدايا علي حكامها.

وفيما يتعلق بالخطر الذي يمثله الفاطميون علي مسرح الأحداث في المغرب يجعل بني مدرار في حذر تام منة و خصوصاً في عهود أواخر أمرائهم و لكن بالنسبة للخطر العباسي فقد فات أوانه فهو الآن لا يشكل تهديداً مباشراً لإمارة بني مدرار و للمبدأ الصغرى الخارجي كما هو الحال في المشرق الاسلامي حيث عمد العباسيون إلي استئصال شأفة الخوارج الصفرية في مدينه قنسرين و منطقة

(1) و هو أبو محمد عبيد الله بن جعفر بن اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن زين

العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ابن عذاري، البيان المغرب ج 1 ص 158 - 159 ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 50 .

(2) و قد أصبح يعرف بالخليفة القائم بأمر الله بعد أن حكم بعد أبيه.

(3) أورد بن خلدون روايتين في هذا الصدد اولهما أن الخليفة العباسي المعتضد بالله هو الذي أوحى إلي بن مدرار بالقبض علي عبيد الله المهدي فيما يذكر في الرواية الثانية أن اليسع استجاب لطلب الخليفة العباسي المكتفي بالله كما أن هاتان الروايتان لا تحددان ما إذا كان الخليفة العباسي أم الأمير الا غلبتي هو الذي بعث لبيحث اليسع علي القبض علي عبيد الله المهدي (العبر و ديوان النبأ أو الخبر ج 2 ص 351-350)

الموصل و بلاد الجزيرة الغراتية وأرض السواد في العراق فأبادوا جموعهم وقتلوا زعماءهم وبطشوا بجيوشهم ولكن هل أن علاقات بني مدرار المبنية علي العداة مع الأغلبية الذين كانوا يدينون بالولاء السياسي و التبعية للعباسين ينعكس سلباً مع علاقاتهم مع الخلافة أم إن ذلك ينحصر في السياسية التي كان يتبعها الأغلبية بعيدا عن التأثير العباسي؟ إننا نقرأ عن تعرض فقهاء الصفرية و أتباعها لاضطهاد الأغلبية ووصمهم بالزندقة و المروق عن الدين و تشتيت اجتماعاتهم أثناء الصلاة في المساجد وتبديد حلقاتهم في مدينة القيروان ومنعهم من مزاوله مهنة تعليم الصبيان وتأديبهم وملاحقة المخالفين منهم وتعريضهم لمزيد من البطش والتعنيف.

علاقة بني مدرار مع بني رستم:

كانت العلاقات بين الطرفين قد اتسمت بطابع ودي ربما كان ذلك بسبب مواجهتهم عدواً مشتركاً واحداً هو الخلافة العباسية التي كانت تنظر إلي الخوارج بصورة عامة -صفرية أو اباضية، أعداءاً تقليديين لها كما أن الرستميين ربما في هذا الموقف أوتوا مرونة وبعد نظر سياسي فضلاً عن استيعابهم للظروف التي كانت تلف المنطقة بأسرها فقد غضوا الطرف وتحاشوا الخلافات مع جيرانهم المدراريين بخاصة الذين شعروا بانهم يرتبطون وإياهم بوحدة المصير المشترك فكانا دوماً يظهران مودتهم لبني مدرار ورغبتهم في السلام والموادعة الأمر الذي جعل بني مدرار يستجيبون لهم وذلك علي الرغم ما كلف الرستميين كثيراً من التغاضي و التضحيات والظاهر إن السبب الذي دفع بني رستم إلي هذه السياسية مع المدراريين ربما يكمن في إن عدة آلاف من الخوارج الاباضية كانوا يقيمون في سجلماسة قد لعبوا دوراً في مناهضة أمرائها وإنهم كانوا موالين لرؤسائهم من مشايخ الاباضية أكثر من ولائهم للإمارة التي كانوا يعيشون في كنفها، وقد درجوا علي إرسال زكاة أموالهم إلي مشايخهم في تاهرت ليصرفوها حيث شاؤوا⁽¹⁾. وعندئذ فلا بد للرستميين من تولية الظهر لكل شقاق و الإحجام عن إنكاء الفتن التي كانت تبرز من خلال احتكاك أنصار المبدئين أو الأقليات في كلتا الأمارتين كما أن

(1) د. محمود اسماعيل -الخوارج في المغرب الاسلامي ص 159.

المصاهرة السياسية التي عقدت أوامرهما بين الرستميين والمدرايين ⁽¹⁾ خففت كثيراً من غلواء تطرف بعض الفئات التي لم يكن يروق لها أن تري الرستميين يوادعون بني مدرار ويسالونهم ⁽²⁾ وساهمت علي تحقيق التضامن والوئام بين إمارتي الخوارج وعزوف كل منهما عن التدخل في الشؤون الداخلية للطرف الآخر ⁽³⁾.

علاقة بني مدرار مع الأدارسة:

كان طابع العداء هو الغالب علي العلاقات السياسية بين المدرايين و الأدارسة و لعل السبب يكمن بالدرجة الأولى في الخلافات المبدئية فالمعروف أن الخوارج عموماً و الصفريّة بصورة خاصة كانوا يضمرّون عداًءاً تقليدياً للعلويين و للأدارسة لزيد بين علي وجه الخصوص كما أن العامل التاريخي في رسم العلاقات بهذا الإطار يمكن استقراؤه بوضوح من خلال عوامل قيام إدارة الأدارسة في المغرب الأقصى سنة 172هـ - 789م الذي كان علي حساب الخوارج الصفريّة ونفوذهم في هذه المنطقة حيث اكتسح الأدارسة كل وجود للقبائل التي تدين بالمبدأ الصفري و عرضوها للبطش و التكنيل وأصبح لا مناص للطرفين من خوض الصراع ضد بعضهما ومن المرجح أن الأدارسة كانوا وضعوا خطة لتصفية الخوارج الصفريّة و لكنهم علي ما يبدو عزفوا عن تحقيق ذلك بسبب صراعهم الحاد و تفاقمه مع الأغالبة الذين سخرتهم الخلافة العباسية لمناهضة الأدارسة فقد نجحوا في إثارة القلاقل وحبك المؤامرات في وجه أمراء بني مدرار و العمل علي القضاء عليهم و تصفيتهم ⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ تم تزويج (اروي) ابنة عبدالرحمن بن رستم من (مدرار) الذي تغلب علي أخيه (ميمون) من امرأة أخرى بويغ أميراً علي سجلمانة.

⁽²⁾ يقول النفوسي: (و قبل الإمام رغم اعتراض المعترضين و المنكرين) الإزهار الرياضين ج 2، ص 92 .

⁽³⁾ د. محمود اسماعيل، المصدر نفسه ص 105 .

⁽⁴⁾ اغتالوا إدريس بن إدريس (الأول) 173-177هـ بإيعاز من الخليفة هارون الرشيد اغتاله سليمان بن جرير المعروف بالشماخ. ثم اغتالوا إدريس الثاني 187-213هـ كذلك مولاهم ارشد الذي كان صاحب إدريس الأول من المشرق الاسلامي (البكري-البيان المغرب ج 1 ص 210-211- لسان الدين بن الخطيب - أعمال الأعلام ص 192-194-202 .

وعلى الرغم من أن المدراريين كانوا يسعون في الخفاء للقيام بالدور نفسه الذي كان يقوم به الأدراسة ولكن ظروف المنطقة لم تكن تسعفهم لتحقيق مساعيهم حيث تصاعد الخطر الفاطمي وبات يهدد الجميع فعليهم أن يتدبروا و سائلهم لتتادي هذا الخطر في الوقت الذي لم يكن وصفهم يسمح لهم في الوقوف أمام الزحف الفاطمي المتفاقم في جميع أنحاء المغرب الاسلامي و افريقية.

والظاهر أن الطرفين لم يعدما وسائل المكائد والدسائس ضد بعضهم البعض فقد اتخذ العداء السياسي بينهما مظاهر من الفعل ورد الفعل كان الأدراسة يمسكون فيها بزمام المبادرة فيم كان بنو مدرار يلوذون بالصمت حيناً ويتصدون لمواجهته حين آخر وأوضح صوره لهذا الصراع ما قام به الأدراسة من غزو المدراريين الذين كانوا ثلاثة أضعاف جيشهم ولكن رغم ذلك فإن الأدراسة أوقعوا فيهم الهزائم ووصلوا في غزوهم إلى مدينة تلمسان التي تضم قبائل موالية للمدراريين ولم يستطع المدراريون في مدينة سجلماسة من إيجاد إخوانهم في تلمسان واستنقاذهم من ضربات الأدراسة ويعزي ذلك إلى استحالة الاتصال بين سجلماسة وتلمسان إلا عبر أراضي إمارة الأدراسة حيث كان الطريق إليها يمر بدرعة وفاس ومنها إلى تلمسان.

ومن المرجح أن بني مدرار كانوا يحرضون زملائهم من الخوارج الصفرية المقيمين في غاس ضد الأمراء الأدراسة يذكر البكري معلومات حول قيام عبد الرزاق الصفري و هو من عدوه الاندلسيين داخل مدينة فاس بثورة ضد الأمير علي بن عمر بن إدريس وفشلها، ولكن هذا المؤرخ لم يشر إلى أن هذه الثورة كانت رد فعل من جانب بني مدرار وإن عبدالرازق الصفري هو أحد صنائعه⁽¹⁾ ولكن من المؤكد أن هذه الثورة أحدثت تصديقا في إمارة الأدراسة مما جعلت المدراريين يعدون العدة لنسب نفوذهم واكتساح الأدراسة لكن جهودهم في هذا الصدد باءت بالفشل وذلك بسبب تعرض بلادهم للخطر الفاطمي.

⁽¹⁾ ويسميه نسان الدين بن الخطيب (عبد الرزاق الفهري الخارجي) أعمال الأعلام ق 3 ص 208 و يضيف البكري إلى أن هذا الثائر كان أصله من الإندلس ومن مدينة وشنة الواقعة في إقليم اراكون بأسبانيا (المغرب ص 125).

obeikandi.com

الفصل الخامس

إمارة بني رستم في المغرب الأوسط

- 1- إمارة عبد العلي بن السمح المعافري
- 2- الإمارة الرستمية وتأسيس مدينة تاهرت
- 3- العلاقات السياسية
 - أ- الرستميون والخلافة العباسية
 - ب- علاقات الرستميون بالأدارسة
 - ج- العلاقات بين الرستميين وأموي الأندلس

obeikandi.com

إمارة بني رستم في المغرب الأوسط

144-336هـ/761-947م

إمارة عبد الاعلي بن السمح المعافري 140-144هـ/757-761م⁽¹⁾ :

وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح، عربي من اليمن اختاره أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي البصري الذي كان من أبرز علماء الخوارج الإباضية لينضم إلي ما عرف بتاريخ الإباضيين "حملة العلم الخمسة"⁽²⁾ لقيادة الثورة الإباضية في المغرب و لرئاسة الإمارة الإباضية المقبلة و ذلك لغزارة علمه وتفهمه العميق في الدين و مهارته في الاستنباط و للتأكيد علي تغليب العنصر العربي في هذه الحركة وإعطائها طابعاً عربياً في بلاد المغرب الاسلامي.

وقد استطاع عبد الاعلي بن المسح إعلان قيام إمارته في موضع غربي طرابلس يعرف باسم (صياد) ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى تمكن الإستيلاء على طرابلس واتخذها مركزاً وقاعدة له مما ساعده علي بسط سيطرته علي المنطقة الواقعة من برقة شرقاً حتى القيروان غرباً وإلي فزان جنوباً.

غير إن الحركة التي كان يتزعمها عبد الاعلي بن عبد السمح المعافري فشلت بسبب تخلي القبائل المغربية عنه في وقت عصيب كان قد تعرض له، ربما علي أغلب الاحتمال إن سياسته التي اتبعها في تنظيم الجيش باستبعاد بعض العناصر دفعت هذه القبائل لهذا الموقف، حتى إن بعضهم من الإباضيين علي حد قول ابي

(1) انظر الفصل الثالث "عصر الولاة" ص 15.

(2) تركزت دعوة الإباضية في المغربيين الادني و الأوسط و تحمست لها بعض قبائل المغرب ورغبوا في التعمق في دراسة مبادئها ولكن لم يكن لهم أن يحققوا ذلك الا في المشرق فرحل فريق من علمائهم إلى البصرة للأخذ علي ابي عبيدة مسلم بن ابي كريمة وكان قد رحل إلي هناك خمسة أطلق عليهم حملة العلم الخمسة" في مقدمتهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان وعاصم السدراتي من غرب الاوراس وأبو داود القبلي النفزاوي من قبيلة نفزة جنوبي افريقية واسماعيل بن ضرار الغدامسي من غدامس جنوبي طرابلس (سليمان الباروني مختصر تاريخ الإباضية ص 35).

زكريا بعد مقتل عبد الاعلي " انتقموا وتشفوا بالجند الموالين لأبي الخطاب وأخذوا يمعنون في البطش فيهم "(1) أما العامل الآخر الذي أودي بالحركة الاباضية السياسية والعسكرية التي كان يقودها عبد الاعلي بن السمع فهو الموقف الذي اتخذته الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور حيث أوعز إلي عامله محمد بن الاشعث الخزاعي بتجريد جيش سنة 142هـ لاجتياح طرابلس و سحق الجيوش الاباضية غير إن الجيش العباسي بقيادة عمرو بن الاحوص القجلي هُزم أمام الجيش الإبااضي في منطقة "مغمداس"(2) وربما هي غدامي الحالية، مما جعل الخليفة يهتم بمعالجة توسع الحركة الاباضية و تهديدها للنفوذ العباسي في المغرب و مصر وحتى في بلاد الشام فأوعز إلي والي مصر محمد بن الاشعث مرة أخرى بتولي افريقية التي كانت وليت إلي عبد الرحمن بن رستم قاضي طرابلس الذي ولاه إياه رفيقه في العلم عبد الاعلي بن السمع(3) .

لقد أعد العباسيون في هذه المرة جيشاً يقول عنه بن عذاري بأن عدته أربعون ألف مقاتل (4) عهد بقيادته إلي ثمانية وعشرين من القواد في مقدمتهم الأغلب بن سالم التميمي (5) والمحارب بن هلال (6) والمخارق بن غنار الطائي (7) وقد زحف هذا الجيش بعدته نحو مدينة برقة واتخذ من مناطقها القريبة قواعد لعساكره يترقب الفرصة للانقضاض علي الإباضيين وإبادتهم وتخليص النفوذ العباسي وسطوته من

(1) السيرة و أخبار الأئمة الورقة 12.

(2) وجاء عند مزارى مقداس علي شاطئ البحر البيان المغرب 1 ص 71.

(3) ومعروف أن اختيار عبد الاعلي لرفيقة عبدالرحمن بن رستم و هو من حملة العلم الخمسة ليكون قاضيا في طرابلس كان له أهمية كبيرة في التاريخ اللاحق للحركة الاباضية و نجاحها في إقامة الإمارة علي اسس صحيحة بعيدة عن الأخطار المحتملة التي كانت تسببها له الجيوش المعادية من حين لآخر.

(4) البيان المغرب ج 1 ص 73.

(5) وهو أبو عقال بن خفاجة التميمي اشتهر بالرأي و الشجاعة قدم المغرب مع محمد بن الاشعث الذي ولاه علي طنبة قاوم الخوارج إلي أن أصيب بسهم بالقرب من تونس فقتله سنة 150هـ و هو والد إبراهيم مؤسس إمارة الأغالب (السلوى)-الاستقصا لأخبار المغرب الاقصى ج 1 ص 129-130.

(6) انظر ترجمته في بن خلكان وفيات الأعيان ج 4 ص 101-102

(7) انظر ترجمته في ابن شاعر الكبتى، فوات الوفيات، ج 2 ص 216.

التهديد؛ فيما حشد الإباضيون جيشاً لا يبالغ المؤرخون كثيراً في تعداده بقولهم في انه يزيد عن مائتي ألف مقاتل وقد عسكروا بهم في منطقة «سرت»⁽¹⁾ ونتيجة للخطأ العسكرية الذي وضعها محمد بن الأشعث الخزاعي⁽²⁾ فقد سحق الإباضيون وهُزموا وقُتل الكثير منهم، حتى أن عبد الرحمن بن رستم لم يستطع أن يقوم بإنجاد رفيقه عبد الأعلى، بل أثر الانسحاب من المغرب الأدنى بعيداً عن الضربات المتوقعة التي قد يقوم بها العباسيون في المستقبل والاحتفاء في منطقة المغرب الأوسط.

⁽¹⁾ سرت مدينه ذات سور صالح كالمنيع من طين و طابية و فيها قبائل لهم مزارع تفصد نواحيها إذا أمطرت و تنتجع مراعيها و هي على سيف البحر -عذبة طيبة و أصلها من احسن خلق الله خلقا (أبو عبيد البكري- المسالك والممالك ج 2 ص 651 -بن حوقل).

⁽²⁾ تظاهر محمد بن الأشعث بالانسحاب من ملاقاته الإباضيين في ساحة المعركة و في محاوله الالتفاف عليهم كما انه استغل النزاع الذي نشب بين أهم عناصر الجيش الإباضيين من قبيلتي زناتة و هواره حيث اتهمت زناتة أبا الخطاب عبد الأعلى ميله مع هواره مفارقة جماعة فهم (ابن عذاري - البيان المغرب ج 1 ص 73).

الإمارة الرستمية وتأسيس مدينة تاهرت

144-283هـ / 761-896م

استطاع عبد الرحمن بن رستم، أن ينأى بعيد عن متناول الجيوش العباسية و حلفائها من القبائل و بدأ يعد العدة لوضع الأسس الكفيلة لإقامة كيان سياسي مستقر علي غرار ما كان سائد في المغرب الأدنى و بعد سنتين من الفشل الذي مني به الإباضيون بإقامة إمارة مستقلة هناك توصل إلي ما يفيد بقيام إمارته و إحكام عوامل بقائها و توسيع نفوذها و توطيد أركانها واستقطاب القبائل الأخرى لمناصرتها واغلب الظن إن الاباضيين والقبائل الموالية لهم لم تعد سهلة الانقياد كما كانت في السابق، حيث هدرت دماء رجالها بسخاء أمام الجيوش العباسية و لم تحتفظ بالكيان التي ناضلت من أجله فقد انتزعت قاعدتهم طرابلس منهم لذلك شرطوا مبايعتهم لعبد الرحمن بن رستم بتأسيس قاعدة يمكن الدفاع عنها فدأب علي اختيار موضع يبني عليه مدينة تاهرت لتكون مقرا لإمارته و علي سفح جبل جزول المرتفع القريب ممن منطقة " تياريت " الحالية في ولاية وهران غربي الجزائر شرع بتخطيط المدينة وحفر الأسس لأسوارها سنة 144هـ، وبعد أن شيدت وأصبحت معقلا عمرانيا و سياسيا وحضاريا و توطدت أسس الإمارة و أركانها و ترسخت دعائمها و قواعدها بايعت القبائل عبد الرحمن بن رستم بالإمامة سنة 160هـ مما أتاح للإمارة القدرة للدفاع عن نفسها و كانت قبيلة نفوسة في مقدمة القبائل التي بايعته لذلك انصرف لتنظيم تاهرت حاضرة إمارته و قاعدتها فاستقطب كثيرا من القبائل و مثلها في مجلس للشورى وجعل نفسه مسئولا أمام الدعاة و الاباضيين عامة عن تنفيذ كل ما ينص عليه مبدأ الشورى، وليس لديه أية صلاحيات باتخاذ قرارات تمس المصلحة العامة بدون التشاور مع المجلس المستشارين الذي كان يتألف من الخوارج " الشراة " وشيوخ المذهب وزعماء القبائل ووجوهها وفي عهد عبد الرحمن بن رستم كان مجلس المستشارين مؤلف من سبعة من خيرة رجال الإمارة أصحاب الصلاح والزهد والعلم وهم مسعود الاندلسي و عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وعمران بن

مروان الإدلسي وأبو الوفق سعدوسي بن عطية وشكر بن صالح الكتامي ومصعب بن سدمان ويزيد بن فندين⁽¹⁾

لقد عرف عن عبد الرحمن بن رستم إشاعته للعدل بين الرعية وعدم الاستئثار بالحكم كما أنه استأصل عوامل الفتنة و الاضطراب فاستتب الأمن وأصبحت تاهرت دار أمان لمن يقصدها من المغرب أو المشرق وقد حرص الإباضيون أن تكون مدينتهم في موقع "جيد الهواء كثير المياه خصب الأرض قابل للعمارة مأمون من العدو"⁽²⁾ وفي مكان مرتفع وملامح للرعي ليكون منتجعا صيفيا للقبائل الرعوية في شمال الصحراء. وفي غصون سنوات قليلة أصبحت تاهرت مدينة عامرة تقوم فيها تجارة نشطة تعتمد على مواني عديدة أهمها مرسى فروخ وميناء مرسى تنس وميناء مرسى ستغانم وميناء مرسى وهران، وهذه المواني تربط الإمارة الرستمية بالإمارات والدول الإسلامية في المغرب والأندلس ومن الجدير بالذكر أن اليعقوبي⁽³⁾ والمقدسي⁽⁴⁾ وابن حوقل⁽⁵⁾ والبكري⁽⁶⁾، وصاحب كتاب الاستبعاد في عجائب الأمصار⁽⁷⁾ وياقوت⁽⁸⁾ ذكروا معلومات مفيدة عن المدينة منذ القرن الثالث الهجري وحتى السابع مفادها أن المدينة تطورت منذ أن اختطها الإباضيون فأصبحت حاضرة للإمارة وقصبة لعدد من المدن الصغيرة والقرى ومركزا من مراكز العلم في العالم الإسلامي.

(1) النفوس، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ج 2 ص 101 .

(2) م. ن ، ص 6 .

(3) قال عنها "المدينة العظمى وتسمى عراق المغرب، التاريخ ج 1 ص 153.

(4) ذكر لها أوصافا دقيقة ثم قال عنها بأنها بلد كثير الخير رحب رفق طيب رشيق الأسواق غزير الماء جيد الهواء (احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 228).

(5) وصفها في القرن الرابع الهجري من النواحي العمرانية والاقتصادية والاجتماعية (صورة الأرض ص 86).

(6) تحدث عنها في القرن الخامس الهجري نذكر أبوابها الأربعة وموقعها وأشار إلى زراعتها ومناخها (المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص 66).

(7) مجهول يصفها في القرن السادس الهجري وقال عنها بأنها مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور صخر ثم يصف موقعها وأحوالها الاقتصادية وزراعتها (ص 178).

(8) قال عنها في بداية القرن السابع الهجري أنها مدينة جليلة وكانت قديما تسمى عراق المغرب (معجم البلدان ج 2 ص 8).

ويعقد الدكتور الحبيب الجخاني فصلاً مهماً في تطور الحركة العمرانية في تاهرت فيقول أنها في بداية أمرها كانت مدينة متقشفة متواضعة يسيطر عليها مظهران، مظهر المعسكر والمظهر الديني وقد غلبت عليها شخصية عبد الرحمن بن رستم الزاهد الورع الذي كان يدير بنفسه شؤون الإمارة و المدينة معا وقد جاء هذا التطور نتيجة لازدهار اقتصادها و لاسيما تجارتها و من المنشآت المعمارية في تاهرت، دار الإمارة ولكن ابرز اثر معماري في خطط المدينة هي القصبة المشرفة على السوق و تعرف "المعصومة" (1).

ونظراً للصلات الروحية و الترابط المبدئي بين إباضي البصرة في العراق وبين إباضي المغرب حيث تخرج حملة العلم الخمسة المقاربة من هناك، فقد إلتمز إباضيو البصرة بدعم الإمارة الرستمية الاباضية مادياً و روحياً فأرسلوا إليها الأموال و أفقوهم في مشكلاتهم السياسية و المذهبية و تدخلوا لتسوية خلافاتهم بإبداء النصح لهم وإرسال البعوث و الرسل، وقد عبر إباضيو البصرة عن اعتزازهم بالإمارة الرستمية التي حققت آمالهم في تطبيق مبادئهم و بعدم تردددهم عن مساعدتها بالأموال، فيشير بن الصغير المالكي إلى أن إباضي البصرة جمعوا أموالاً عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم لتسليمها إلى عبد الرحمن بن رستم (2) وقد قرر المغاربة قبول مساعدة زملائهم لحاجتهم إلى كل ما من شأنه أن يقوى دعائم إمارتهم. و ساهمت هذه المساعدة المالية في توسيع نطاق العمران فشرعوا في إجراء الأنهر و اتخاذ الأرجاء و المستغلات، و من المحتمل أن السلاح

(1) المغرب الاسلامي ص 107-117.

(2) يذكر وصول الوفد البصري إلى تاهرت حيث دلهم الناس على دار عبد الرحمن بن رستم فوجدوه في غاية البساطة فقد كان هو نفسه يقوم ببناء داره (سيرة الأئمة الرستميين ص 15) ثم انظر تفصيلات مهمة عن ذلك عند الباروني، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ج 2 ص 85 (د. السيد عبدالعزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 570-650 .

الذى ابتاعوه كان بفضل أموال البصريين⁽¹⁾، وقد ساهم فى قوة تسليحهم ومكنهم فى بسط سيطرتهم وسيادتهم على أكثر قبائل المغرب داخل حدود إمارتهم وخارجها كما أن هزيمة الجيوش المناوئة لهم سنة 151هـ وفر لهم ظروفاً لإرساء إمارتهم وأقنعهم بضرورة تقوية مدينة تاهرت لتكون مركزاً يتمتع بالمنعة والقدرة على الصمود والبقاء.

لقد اصطبغت الأحوال السياسية وحتى أزمت الحكم التي كان يتعرض لها الإباضيون والمعارضة والثورات والانتفاضات بالطبيعة الدينية، حيث أن الإمارة قامت على عصبية قبيلة، ولكن عبد الرحمن بن رستم نجح إلى حد ما بتأسيس رابطة مبدئية لقبائل المغرب من البتر التي وحدتها الدعوة الاباضية أما الأزمت السياسية التي واجهها نظام الحكم، فقد كانت على الأغلب بسبب تصدع الدعوة واختلاف آراء الدعاة في الذود عن مبادئهم وحمايتهم من أية انحرافات وانشقاقات.

والظاهر أن العلاقات التي كانت سائدة بين الخوارج المغرب عموماً وبين خوارج المشرق و لاسيما إباضيي البصرة، ذات طابع سياسي أكثر منه ديني نلاحظ من ذلك خصوصاً من التوجيهات التي كانت تصدر عن إمام الاباضية في البصرة ابي عبيد مسلم بن ابي كريمة إلى رفاقه إباضيي تاهرت ويمكن أن نستنتج من رسالة هذا الأخير التي أرسلها إلى دعائه في المغرب في أوائل القرن الثاني الهجري، أن الإمارة الرستمية الاباضية ظلت متصلة سياسياً وفكرياً ودينياً بالتنظيمات السرية في البصرة، ولعل أوضح ما يشير إليه بخصوص هذه العلاقات

⁽¹⁾ يعتقد فروخى، أن هذه الأموال كان قد بعث بها خوارج البحرين

Faghy, Dr.Persian, dansby in North Africa, the Rustamides, the Islamic Review,P14.

فيما تؤكد المصادر الإباضية أنها من خوارج البصرة وربما أن خوارج البحرين أرسلوا هذه الأموال إلى البصرة غد يوجد مشايخ الاباضيين فأرسلوها بدورهم إلى المغرب(أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة الورقة 14).

الوطيدة قوله: " فلعمري لقد سرنى ما انتهيتم إليه من أمركم وإن كان ذلك لم يخف عنا، غير أنا لم نظن الذي كتبتم به إلي ثم يقول: " أتانا كتابكم بمسائل فمنها ما رأيتم أن أجيبكم فيها ومنها ما رأيتم إلا نجيبكم فيها من غير هوان ولا تقصير إلا الذي رأيته أصلح لجماعتكم وأقوم بشأنكم وأرفق بضعيفكم وأعطف لقلوبكم وأجمع لأمركم " (1).

لقد انتهج عبد الرحمن بن رستم، سياسة تقوم على المحافظة على إمارته الناشئة من أية أخطار محتملة قد تتعرض لها، فعمل على توطيد حكمه وتدعيم أسس إمارته، و إرساء نظمها في الحكم والإدارة، فكسب الأتباع والأنصار واسترضاءهم واستكمل إعداد جيشه بتعبئة جنده وتوفير الأسلحة والمعدات لجعله على أهبة الاستعداد للدفاع عن إمارته، والتزم بسياسة المهادنة مع القوي الخارجية فحرص على أن تكون علاقاته مع ولاته العباسيين وعمالهم بأفريقية طبيعية ولا يشوبها ما يعكرها، ثم سعى إلى المصاهرات السياسية التي ربما تخدم أهدافه في تعزيز مكانه إمارته بين إمارات المنطقة وقبائلها، فحالف بني مدرار بمصاهرة أحد أمرائها وهو اليسع بن أبي القاسم (2).

وفضلاً عن ذلك، فقد اهتم عبد الرحمن بن رستم بالأمور الاقتصادية فأولى عنايته بشق القنوات والترع وإنماء العروس والبساتين وإقامة المطاحن وشجع الحركة التجارية فأوجد الفنادق والخانات للتجار وخطط الأسواق ورتبها ونسقها على غرار أسواق المشرق، ووظف المحتسبين ونظم الاحتساب عليها لمراقبتها والحفاظ على نظامها، فأختلف التجار إليها من سائر أنحاء العالم الإسلامي وبخاصة من العراق ومصر وبلاد الشام والقيروان سجلماسة والسودان (3).

(1) أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، رسالة في أحكام الزكاة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 21582، الورقة 114).

(2) النفوسي و الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ج 2 ص 101.

(3) بن الصغير المالكي سيرة الأئمة الرستميين ص 13-16.

ويلقي بن الصغير المالكي ضوءاً مفيداً على التطور الاجتماعي والاقتصادي والعمراني الذي أصاب مدينه تاهرت خلال فترة حكم عبد الرحمن بن رستم، فيشير إلى الأسواق المزدهمة والمساجد المتعددة المنارات العالية و الحمامات المتقنة ويحيط بها بساتين متنوعة ومطاحن منتصبة على الأنهار الجارية واتخذ أهلها الفروش والستائر المزخرفة والخيل المسومة وتنوعت الألبسة وتعددت اللغات والأزياء⁽¹⁾. وهكذا ففي أقل من عشر سنوات خطت الإمارة الرستمية خطوات ملموسة إلى الإمام وأصبحت بمصاف الدولة القوية في منطقة المغرب الأوسط فاكتملت مهابة جيرانها فطلبوا محالفتها و هاجر إليها الكثير من المشاركة والمغاربة والاندلسيين ونزلوا تاهرت كما قصدها التجار والكتاب والعلماء ورجال الصناعة والفن وأرباب الحرف والمهن من سائر أنحاء العالم الإسلامي فأصبح سكانها خليطاً من العرب والسودانيين والأوروبيين من صقلية وإيطاليا وأسبانيا كما نزلها الوافدون من الكوفيين والبصريين والمصريين والخراسانيين إلى جانب الطوائف الإسلامية فقد ضم السكان عدد من اليهود والنصارى الذين كانوا يزاولون الأعمال الاقتصادية والعلمية والفنية ونقرأ عند المؤرخ بن الصغير المالكي قوله: " و انت تيهارت الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار وليس احد ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم وابتني بين أظهرهم حتى لا تري دار الا قيل لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي"⁽²⁾

ومن الجدير بالذكر أن أكثر المعارضين للعباسيين وجدوا في الإمارة الرستمية خير ملاذ لهم تخلصاً مما يلحق بهم في المشرق من الملاحقة الاضطهاد وبخاصة العلويين الذين نزلوا في مدينة الخضراء وسوق إبراهيم ومدينه تمطلاس وجميعها تقع شمال تاهرت على نهر شلف اذ تعد هذه المدن من قواعد الإمارة وأكبر مدنها

(1) سيرة الأئمة الرستميين ص 14.

(2) م. ن . ص 12 - 13.

فضلاً عن حسننها وخصوبتها حيثما رسوا هناك مختلف المهن و الحرف فضلاً عن التجارة وما يتصل بها من مظاهر الحركة الاقتصادية⁽¹⁾.

وهناك حقيقة يمكن أن نقررها وهي أن منطقة المغرب الأوسط وأغلب المغرب الأدنى شهدت نوعاً من الاستقرار وسيادة الأمن في عهد عبد الرحمن بن رستم، فيما كان المغرب الاسلامي عامة يضطرم بنار الفتن والإضطرابات والثورات المستديمة فالإمارة الرستمية في عهد هذا الإمام هي اقوي عسكرية واقتصادياً من إمارتي الأدارسة أو الأغالبة مما أتاح لها أن تفرض وجودها كقوة سياسية لها تأثيرها علي سلام المنطقة وأمنها.

لقد حكم عبد الرحمن بن رستم من 160-171 هـ وكان قد عهد إلي سبعة من رجاله كانوا يؤلفون مجلساً للمستشارين يدير دفة الحكم وعليه أن ينتخب احد أعضائه ليكون إمام للإمارة في حالة وفاته، وقد انتخب ابنه عبد الوهاب خلفاً لأبيه و الظاهر أن حكمه كان استمرار لحكم أبيه وحيث استقر الأمر له فساد الهدوء فيما عدا بعض الانشقاقات الفكرية داخل الحركة الإباضية⁽²⁾.

ولكن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم رأي انه من المناسب لاستتباب الأمن في بلاده محالفة قبيلة لواتة بمصاهرة سياسية، حيث تزوج ابنة رئيس هذه القبيلة فمنع القبيلة من التحالف مع هوارة التي كانت تقف في صف أعداء الإمارة

⁽¹⁾ خرج عليه يزيد بن فنين و هو احد أعضاء مجلس المستشارين مستنداً إلي أن مبدأ الخوارج الإباضية كان يقضي بالشورى دون الوراثة وراح يثير الفتنة و يولب علي عبد الوهاب و يطالبه بإقامة هيئة استشارية يركن إليها في الفتوى وتكون قراراتها ملزمة للرئيس ثم أنكر علي عبد الوهاب إمامته بدعوى انه يوجد من هو اعلم منه و أجدر بالإمامة (النفوس-مختصر تاريخ الإباضية ص 39)و بذلك انقسم الإباضيون إلي فرقتين نكارية ووهابية فالأولي تنكر إمامة عبد الوهاب والثانية تسانده و هي الأكثر الساحقة من الاباضيين و قد انضم إلي النكارية النواصلية المعتزلة (جماعة واصل بن عطاء) و كان المعتزلة من قبيلة زناتة يؤلفون حزباً قويا شمال تاهرت فقاموا بثورة ضد عبد الوهاب استطاع هذا الأخير القضاء عليها (ياقوت-معجم البلدان ج 2 ص 8 النفوس المصدر السابق ص 116 محمد علي دبور تاريخ المغرب الكبير ج 3 ص 481).

⁽²⁾ انظر المصدر السابق.

الرستمية، كما انه دعي قبائل دمر الزناتية للانضمام إليه فاستجابوا لدعوته⁽¹⁾ ويبدو أن الظروف التي كانت تواجه قبيلة هواره جعلتها في وضع حرج مما دفعها للاستغاثة بعبد الوهاب فلم يتردد في نجدها.

وعلي أية حال، فإن عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن علي الرغم مما تخللته انشقاقات وثورات و حركات سياسية و فكرية، كان مرحلة ترسيخ الإمارة وتدعيم أسسها، ولكن بعد تولي افلح بن عبد الوهاب الإمامة علي اثر وفاة أبيه سنة 211 هـ تأكد لدي الاباضيين استقرار مبدأ الوراثة في الإمارة، وهذا يمثل في نظرهم انتهاكاً لتعاليم الخوارج الاباضية الذي كان يقوم علي مبدأ الاختيار والشورى في الحكم، ويذهب الدكتور الجحاني إلي أن الإمامة الاباضية أصبحت تنتقل بالوراثة ولكنها تحاول أن تضيف علي نفسها مظهر الاختيار والشورى تغطية للتناقض الواضح بين مبدأ أساسي من مبادئ الدعوة والوضع الذي حالت إليه في تاهرت⁽²⁾. غير أن خطراً جديداً بات يهدد كيان الإمارة الرستمية يتمثل في صراع العصبية العنصرية والقبلية، ظهر إبان حكم افلح بن عبد الوهاب حيث استطاع في حينه بما أوتي من مرونة و حذق سياسيين أن يجنب إمارته منه وأن يتجاوز عواقبه بوسائل شتى، دلت علي براعته في الحكم والسياسة إلي جانب ما اتصف به من شجاعة نادرة. كما انه شرع بالتخلي عن مبدأ المركزية في الحكم وعودته إلي مبدأ الشورى فكان مقتنعا برأي مشايخ القبائل و رؤسائها و يأخذ بها عند تعيين الولاة و العمال والجباة ولا يقع تحت تأثيرات المقربين إليه من أسرته واعتراضاتهم وكان يراقب هؤلاء العمال ويجنبهم من التماذي في ظلم الرعية و

(1) كانت قبيلة هواره خاضعة لوالي افريقية العباسي ولكنها استقلت 196 هـ و احتمت في مدينة طرابلس فأوعز العباسيون للأغلبية بإخماد ثورتهم وإحباط محاولاتهم في الانفصال عن نفوذ العباسيين فدخل الأغلبية طرابلس بيد أن الرستميين حاصروا المدينة لإيجاد القبيلة إلي أن خرج الأغلبية منها و عادوا إلي القيروان حيث كان الأمير عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب قد علم بوفاة أبيه فقرر العودة إلي القيروان لكي يظفر بحكم الإمارة قبل أن يستولي عليها احد من أخوته (النفوس المصدر السابق ص 144 ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 5 ص 156).

(2) المغرب الإسلامي ص 124

إرهاقها في فرض الضرائب والمغارم عليها ،في الوقت أتاح لهؤلاء الولاة والعمال و الجباه مزيداً من السلطات ضمن مناطقهم⁽¹⁾ ومن نتائج هذه السياسة، الاستقرار الذي اتسم به عهد افلح بن عبد الوهاب وتأيد الاباضيين له كما "لم يبق في أيامه منازع ولا اجمع جهاته إلا طائع"⁽²⁾ في الوقت الذي "ألقي بيده يميناً وشمالاً وتمكن في إمامته واطردت له الأمور"⁽³⁾.

حتى بلغت الإمارة الرستمية في عهده أوج نضجها السياسي وازدهارها و تخطت الأخطار المتمثلة بالفتن و الثورات، ولكن بعد وفاته سنة 258هـ/873م أصبحت الإمارة تواجه مرحلة عصبية في تطورها السياسي و ظهور النزعات القبلية والعنصرية حيث تفجرت علي شكل حروب دامية أضعفت نفوذ الأئمة وقلصت صلاحياتهم وأدت إلي فقدان هيبتهم بين الاباضيين والقبائل المغربية المتحالفة معهم.

وربما يكون من المفيد أن نلقي بعض الضوء علي طبيعة العلاقات بين القبائل والعناصر التي تكون النسيج العام لكيان الإمارة الرستمية فمن المعلوم إن هذه الإمارة كانت تضم قبائل متعددة مثل هواره ونفوسة ونزاة وسدراتة ولماية إلي جانب مجموعات من أعقاب العرب الفاتحين وبعض الجند المغاربة و كانت نفوسة " تلي عند تقديم القضاة وبيوت الأموال وإنكار المنكر في الأسواق والاحتساب علي الفساق "⁽⁴⁾ أي أن منها القضاة والإشراف علي بيوت الأموال ومنها كذلك المحتسبين الذين يراقبون الأسواق فيمنعون المنكر، وهي وظائف لها أهميتها في الحياة العامة، كما أن بعض القبائل الأخرى ترغب في الانصراف إلي الزراعة أو

(1) يشار إلي أنه اتبع شتي ضروب الجبل و اخذ بمبدأ " فرق تسد " فأوشي بين كل قبيلة و ما جاورها ثم "ألقي موجبات التحالف بين كل مقدم و أتباعه وبث الجواسيس بين القبائل (كفاه مؤونة القتال)ابن الصغير المالكي المصدر السابق ص 27 النفوسي، المصدر السابق ص 98-183

(2) الدرجيني، طبقات الاباضية ج 1 (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 12561 ح) الورقة 191.

(3) أبو زكريا، السيرة و أخبار الأئمة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 9030 ح الورقة 29)الشمافي السير ص 187.

(4) ابن صغير المالكي المصدر السابق ص 27.

التجارة أو اتخاذ المناطق القريبة من تاهرت مقراً لها وبعضها الآخر " اتخذ العين والخيول ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة " حيث زاولت الأعمال المالية واقتنت الخيول كما هو حال أهل المدن المتحضرون.

إن مكانة نفوسه وبعض هذه القبائل لدي الحكام الرستميين ومنزلتها في الوظائف العامة لا تقل أهمية عن مكانة العناصر الأخرى التي قيادة الجيش وتسيير الحياة الاقتصادية والسياسية، وكذلك بالنسبة لها عرف " بالرستمية" وهم أجناد من البيت الرستمي الذين تركزوا في بعض الوظائف الإدارية و " السمحية " أتباع عبد الاعلي بن السمع المعافري المواليين للرستميين والمقربين لهم، والظاهر أن هذه العناصر علي اختلافها بدأت تناضل من اجل السلطة ابتداء من الرستمية و السمحية والجند المغاربة والقبائل الضاربة حول تاهرت⁽¹⁾ ونتيجة للصراع بين هذه القوة السياسية من جهة و بينها وبين سلطة الرستميين من جهة أخرى فقد استطاع أبو اليقظان محمد بن افلح 214-281هـ اخو الإمام الشرعي ابي بكر الذي نصب بعد وفاة أبيه افلح بتأييد من قبيلة نفوسة التي كانت تتمتع بنفوذ سياسي كبير استطاع أن يستعيد مدينة تاهرت من الجند المغاربة ويفوز بالسلطة ويستأثر بها لنفسه ثم راح ينتهج سياسة معتدلة وينبذ التعصب لأي من القائل أو العناصر واتخذ مجلساً للشورى يضم شيوخ القبائل والنبهاء كما اتخذ سياسة

⁽¹⁾ علي أثر وفاة افلح بن عبد الوهاب نصبت قبيلة نفوسة ابنه الأكبر أبا بكر 211-240هـ غير أن هذا الأخير كان زاهداً في الحكم و الإدارة فوطد صلاته بالجند المغاربة و صاهر زعيمهم محمد بن عرفه وسلمه مقاليد الإمارة فاستاءت القبائل من تسلطه و انضم أنصار الرستمية إلي نفوسه و لكن أبا اليقظان محمد بن افلح استطاع التخلص من محمد بن عرفة مما جعل هذه القوي تتحفظ للخروج من الفوضى السياسية التي كانت قد عمت تاهرت فاستنكر الجند مقتل زعيمهم فيما وقعت الرستمية و السمحية إلي جانب الإمام أبي بكر و حاولوا الاستيلاء علي تاهرت عندئذ تضامن الرستمية مع الجند و الحقوا هزائماً عدة فيهم و علي الرغم من انضمام الإمام و نفوسه إلي الطرف الآخر لكن الصراع أسفر عن انتصار الجند المغاربة و أرغم أبو بكر علي اعتزال الإمامة و لحق بأتباعه من الرستمية و السمحية مثل بني يقظان و لكن بالتبقت قبيلة هواره أن أقصت الجند المغاربة من السلطة و نصبوا أميراً علي تاهرت (للاستزادة انظر: د محمود إسماعيل الخوارج في المغرب ص 127).

التسامح إزاء أصحاب المذاهب و الفرق غير الاباضية⁽¹⁾، وقد أجمعت المصادر الاباضية علي المصادر بسياسته وحسن سيرته وصلاحه⁽²⁾.

ويمتاز عهد أبي حاتم يوسف بن محمد بن أبي اليقظان 294/281هـ بالهدوء النسبي وذلك علي الرغم من قيام حرب أهلية في تاهرت سببها علي الأغلب تدخل الأمراء والحاشية في رسم السياسة العامة للإمارة وظهور الطوائف والفرق التي تخالف الاباضية وتغذي هذا الخلاف وتوجهه، ومن المحتمل أن اعتماده علي وجود القبائل ورؤسائها للقضاء علي مظاهر الفساد والفوضى قد أثمر في جعل الحياة العامة في مدينة تاهرت طبيعية لا يعكرها صدي الخلافات في البلاط الرستمي، و ربما كانت مبايعة مجلس الشورى بالإجماع في بداية حكمه قد مكنته من اتخاذ الإجراءات الكفيلة للقضاء علي مناوئيه السياسيين وإعادة الأمن إلي إمارته⁽³⁾.

ولكن السبب في الهزيمة التي لحقت به و انتهاء عهده سنة 299هـ — يمكن علي الأغلب بانتهاء دور القبيلة نفوسه واضمحلالها علي يد الأغلبية، فقد هُزم أهل جبل نفوسه هزيمة ساحقة ولم تعد هذه القبيلة توافي الرستميين بالإمدادات ونتيجة المؤامرات التي دبرتها عناصر من البيت الرستمي قتل أبو حاتم يوسف بن محمد فألت الإمامة إلي اليقظان بن أبي اليقظان محمد، ثم بدأت بوادر نهاية الإمارة الرستمية التي أنهكها الصراع والتناحر القبلي حيث يشير أبو زكريا إلي نهايتها علي يد الفاطميين⁽⁴⁾، الذين ظهوروا كقوة نشرت سيطرتها علي جميع

(1) ومن هؤلاء الكوفيين والصفرين والمعتزلة والمالكية (ابن الصغير المالكي المصدر نفسه ص 42).

(2) ابن الصغير المالكي المصدر السابق ص 48-49 النفوس المصدر السابق ج 2 ص 240 الدرجيني مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 8456 ح (الورقة 192).

(3) في بداية حكمه خرج عليه عمه يعقوب بن افلح و بويع بالإمامة و نشبت الحرب بين أنصار الطرفين انتهت بانتصار أبي حاتم و بعد فترة وجيزة الطيب بن خلف الثورة ضد أبي حاتم فحاربه الأخير و انتصر عليه (النفوس، المصدر السابق ص 47-48، الأزهار الرياضية ج 2 ص 271-277).

(4) ومفاد روايته يتلخص إن بنت أبي حاتم و أخاها حرضا أبا عبد الله قائد الجيوش الفاطميين لدخول تاهرت للانتقام من قتل أبيها و قد استطاع أبو عبد الله احتلال تاهرت سنة 297هـ و قتل بن أبي اليقظان و من ظفر به من بني رستم و استباح أموالهم ثم اتجه إلي المكتبة المعصومة و اخذ منها من كتب الرياضيات والفلسفة والصنائع والفنون واحرقها (السيرة وأخبار الأئمة الورقة 36) وجاء أيضا أن احد الاباضيين من النكارية قام بمحاولة لإعادة الإمارة الرستمية بعد أن أسقطها الفاطميون و ذلك بعيد عن تاهرت في منطقة جبال اوارس سنة 916هـ ولكن لم يلبث أن سقط بيد الخليفة الفاطمي المنصور فقتله وسلخ جلده وأحشى تبنا واتخذ قفصا ادخل فيه قردين يلاعبان (المصدر السابق الورقة 37).

المغرب الإسلامي باكتساح القوي التي كانت تتمثل بالإمارات و الدويلات و يبدو أن إسقاط الفاطميين لإمارة الأغالبة سنة 296هـ/908م مهد الطرق أمامهم للدخول إلى المغرب الأوسط و إحكام السيطرة علي الإمارة الرستمية حيث لم يواجه الفاطميون أية صعوبات عسكرية في إسقاطها و إنهاء دورها السياسي و نفوذها في المنطقة.

العلاقات السياسية

الرستميون و الخلافة العباسية:

وقف العباسيون من الخوارج وقفهم التي نقرأ عنها تفصيلات غير قليلة في المصادر المشرقية أو المغربية، فقد عرفوا بعدائهم المستحكم للخوارج فكراً وسياسياً و بذلوا جهوداً كبيرة لمكافحتهم واستئصالهم، وفيما يتعلق بالمشرق فقد تمت علي ما يبدو تصفيتهم من الناحية الفكرية و لم يعد أمام القلة من رجالهم إلا الاختفاء و العمل سراً بعيداً عن أعين السلطة، أو الرحيل إلى المغرب ليكون معقلاً لنشاطهم الفكري و السياسي.

وكان الخلاف الفكري والسياسي بين العباسيين والخوارج الاباضية عميقاً و متأسلاً وذلك منذ ظهور الحركة الاباضية سواء في المشرق أو في المغرب ولو استعرضنا ما لحق بالاباضيين في المغرب الإسلامي من التعسف والاضطهاد علي يد بعض الولاة وملاحقتهم ابتداء من ولاية حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري سنة 127هـ وانتهاءً بولاية محمد بن الأشعث الخزاعي⁽¹⁾، لأدركنا أبعاد التنكيل بالحركة الاباضية ومن المحتمل إن محاولات هذا الوالي الفاشلة في القضاء علي الاباضيين المغاربة عموماً وعلي عبد الرحمن بن رستم الذي فر إلي احدي المناطق الجبلية من المغرب الأوسط قد

⁽¹⁾ ولاة الخليفة أبو جعفر المنصور سنة 144هـ حيث تصدي للاباضيين وزعيمهم أبي الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري في منطقة طرابلس فأوقع فيهم الهزيمة (ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب ج 1 ص 72 - 73).

زودت هؤلاء الاباضيين بطاقة جديدة لمقاومة أعدائهم و الانتقام لما حل بهم من البطش و الاضطهاد وأقنعهم بضرورة إنشاء إمارة تكون ملاذا حصينا لهم من أية أخطار يتعرضون لها في المستقبل .

وأغلب الظن أن الهدنة التي عقدت بين والي العباسيين روح بن حاتم بن مبيعة بن المهلب بن أبي الصفرة 171/ 179 هـ وبين إمارة عبد الرحمن بن رستم⁽¹⁾ والتي تراعي حسن الجوار، كانت تخدم الخطط التي وضعتها الخلافة العباسية في تعزيز نفوذها في المغرب الادني وبعض مناطق المغرب الاقصى.

ومن الملاحظ أن المصادر الاباضية وغيرها قد اختلفت فيمن طلب الهدنة من الآخر فالرقيق القيرواني يذكر أن روح بن حاتم رغب في موادة الرستميين أصحاب تاهرت⁽²⁾ فيما يشير لسان الدين بن الخطيب إلى أن الاباضيين هم الذين رغبوا في موادعته⁽³⁾ ويطلع علينا بن خلدون برواية مفادها أن قوة الإمارة الرستمية في عهد عبد الرحمن بن رستم و منعتها أو جدت الاقتناع لدي الوالي العباسي بضرورة التهاون و حملته علي موادعته و مهادنته سنة 171⁽⁴⁾ كما استمر بالسياسة نفسها ابنه و خليفته عبد الوهاب من بعده⁽⁵⁾ .

ومهما يكن من أمر، فإن عبد الرحمن بن رستم أثر عدم مناجزة ولاية القيروان العباسيين عسكرياً، لكي يتفرغ لمواجهة الأعباء التي واكبت قيام إمارته، وقد ظلت هذه السياسة قائمة في عهد عبد الوهاب بن رستم نتيجة للظروف الداخلية التي كانت تواجهها إمارته، ولما اتسم به حكمه من اضطراب وقلق بفعل الانشقاقات المبدئية والسياسية بين الاباضيين، وهذا يحتم عليه الإبقاء علي السياسة التي

(1) لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 9- 10 و يجعلها الرقيق القيرواني بين الوالي روح بن حاتم و بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (تاريخ إفريقية و المغرب ص 173).

(2) تاريخ إفريقية و المغرب ص 173.

(3) أعمال الإعلام ق 3 ص 10 .

(4) العبر و ديوان المبتدا و الخبر ج 6 ص 8.

(5) م. ن ج 4 ص 415.

اختطها إزاء الجيوش العباسية والبقاء بعيدا عن المواجهات العسكرية و لكن العباسيون كانوا يغتزمون الفرص لتوجيه ضرباتهم للرستميين حيث درجوا علي إثارة المتاعب لهم واستعداد القوي الأساسية في المغرب عليهم وتهديدهم بالقضاء علي حاضرتهم تاهرت وتجريد الجيوش إليها لدكها و تخريبها بل إن العباسيين كانوا يخططون لتصفية أئمتها وأمرائها، لأنهم كانوا يتوجسون خيفة من إتصالاتهم بزملائهم في المشرق الإسلامي لتنظيم الثورات وتحريكها ضدهم، فراحوا يكثر من مراقبتهم بتجنيد الرقباء والجواسيس وبث العيون لتقصي أخبارهم وبخاصة في مواسم الحج⁽¹⁾.

وتبني العباسيون قيادة جميع الحركات المناوئة لحكم الرستميين وغذوها بالمال والرجال وتعهدوا منظميها وقادتها بالتعاون معهم علي إسقاط هذا الحكم ووصفوا لهم الخطط والتدابير الكفيلة بإنجاح حركاتهم، ففي منطقة جبل نفوسة ثار حليف العباسيين "فرج بن نصير" المعروف بنفاث، وهو عالم وفقه متبحر في الإباضية ويشير الدرجيني إلي أن خروج فرج بن نصر علي الأمير افلح بن عبد الوهاب كان بسبب الإخلال بشرعية الإمامة والاستهانة برسومها⁽²⁾ والسياسة في استعمال العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعية ومطالب بيت المال من الرعية⁽³⁾ وقد إتخذ فرج بن نصير من قرية قنطرة منطلقاً له ولأعوانه وأنصاره ضد الإمارة الرستمية، غير أن سياسة افلح بن عبد الوهاب تجاه هؤلاء الثائرين قد

⁽¹⁾ يذكر أبو زكريا أن فقهاء الإباضيين برروا لعبد الوهاب بن عبد الرحمن إجماعه عن أداء فريضة الحج خشية الوقوع بيد العباسيين (وقالوا أيضا بعدم أمان الطريق و هذا شرعا من الشروط الواجبة في الحج) السيرة و أخبار الأئمة الورقة 23 انظر النفوس الأزهار الرياضية ص 140 كما يذكر المؤرخون التفصيلات عن حادثة إلقاء القبض علي الأمير الرستمي أبي اليقظان محمد بن افلح في مكة أثناء ادانة الحج من قبل أعوان الوالي العباسي و إرساله إلي بغداد و إيداعه السجن هناك و هذا يدل علي مراقبة العباسيين لوفود المغاربة ورصد تحركاتهم في المشرق (ابن الصغير المالكي، سيرة الأئمة 27-29 ، أبو زكريا ، السيرة و أخبار الأئمة الورقة 30-31 الدرجيني، طبقات الإباضية ج 1 ص 37 النفوس ، مختصر تاريخ الإباضية ص 205 .

⁽²⁾ طبقات الإباضية الورقة 38.

⁽³⁾ النفوس، المصدر السابق ص195.

أثّرت في تثبيط عزيمتهم حيث انصرف أكثرهم عن هذه الحركة، ولم يكن أمام فرج بن نصر إلا اللجوء إلى بغداد ⁽¹⁾ ويبدو إن هذا التأثير الذي لم يوفق في النيل من سلطات تاهرت بعد تأمره مع الخلافة العباسية، لكنه نجح في إحداث انقسام مذهبي و سياسي بين الاباضيين و تكوين فرقة عرفت "بالنفائية" ظلت معادية للسلطة الحاكمة في تاهرت طوال عهد الإمارة الرستمية وذلك علي الرغم من وجود ما يشير إلى أن أنصاره قد وهنوا و تفرقوا لدي عودته من بغداد فتأب و رجع عن مسائله التي خالف فيها ⁽²⁾.

ويتضح العداء بين الخلافة العباسية و بني رستم بصورة أكثر جلاءً بتحريض الحلفاء للمشاركة من الكوفيين وشيوخهم و رؤسائهم للعمل ضد الحكم الرستمي، فقد نجح هؤلاء في تأليب عامة المدينة ضد الأمير يوسف بن محمد بن أبي اليقظان و وضعوا خطة لاغتياله و قاموا بانتفاضة في المدينة بالاشتراك مع أهلها، اضطروا الأمير إلى التسلل من تاهرت مع خاصته وأهله وكان بعض قادة هؤلاء الثائرين و محرضيهم في بغداد قبيل وقوع تلك الأحداث ثم عادوا واشتركوا مع الثائرين مما يؤكد ضلوع العباسيين بالتآمر ضد الرستميين.

ومن الجدير بالتنويه إلى أن قيام إمارة الأغلبية في منطقة المغرب الادني سنة 189هـ يمثل مرحلة جديدة في العلاقات السياسية التي تقوم علي العداء بين العباسيين و الرستميين، وذلك أن الأغلبية أول ما اتجهوا إليه هو نزاعهم مع الرستميين في منطقة جبل نفوسه، اذ يتركز نفوذ الرستميين وممتلكاتهم هناك حيث هددوها فاستغاثت بالأمير عبد الوهاب بن عبد الرحمن سنة 196هـ

⁽¹⁾ تذكر المصادر الاباضية أن فرج بن نصر وجد فرصته للإطلاع علي مصادر الذهب الإباضي فدرسها و استوعبها و قيل ان الخليفة أمر بالسماح له بالإطلاع علي المحظور من المصنفات و الكتب في مذهب الخوارج الاباضية (أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة الورقة 31، الرجيني، طبقات الاباضية ج 1 ص 37

⁽²⁾ د. محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي ص 125، لكنه يدل علي تشككه بتوبة نفاث بوجود كثير ممن اعتنقوا آراءه في أواخر القرن الخامس الهجري.

فزحف إليها بحشوده الهائلة من رجال نفوسه مما اضطر الأغلبية علي قبول الهدنة معه⁽¹⁾.

وعلي الرغم من ذلك فقد استمر الأغلبية يناصبون العداء للرستميين نيابة عن العباسيين بيد إن الأغلبية لما عجزوا عن تحقيق أهدافهم في هذا الجانب عمدوا إلي إنشاء مدينة "العباسية" في جوار مدينه تاهرت و قد استهدفوا من إنشائها تحويل الأنظار عن حاضرة الرستميين التي كانت تجتذب عددا كبيرا من المغاربة و المشاركة من السياسيين و أصحاب الرأي و من العلماء و الفقهاء و التجار و أصحاب المهن و الصنائع و لكن الرستميين وثبوا علي مدينه العباسية فأجلوا سكانها وأحرقوها⁽²⁾.

(1) النفوسي، الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الاباضية ج 2 ص 145.

(2) ابن خلدون، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ج 4 ص 429 و الظاهر أن الصراع بين الأغلبية و الرستميين الذي استمر حتى موقعة (نصر مانو) سنة 283 هـ قد استنفذ قواهما و مهد لسقوطها علي أيدي الفاطميين سنة 297هـ/ 909 م.

علاقات الرستميين بالأدارسة:

تقوم العلاقة بين الرستميين والأدارسة علي العداء المذهبي التقليدي و ذلك علي الرغم من موقفهم الموحد إزاء الخلافة العباسية الذي كان يتسم بالعداء كما أن غالبية القبائل التي انضمت إلي الأدارسة وهي "زناته و لماية و لواتة و سدراة و نفزة " كانت تدين بالمبدأ الإباضي (1) فكان علي الرستميين أن يقلقوا بشأن هذه القبائل التي كان من المفروض أن تستظل تحت لواء الإمارة الرستمية الاباضية لا أن تنضوي تحت نفوذ الأدارسة الذين واصلوا سياستهم التوسعية بمحاولة ضم بطون هذه القبائل في منطقة تلمسان و شلف إلي منطقة نفوذهم و العمل علي استئصال الأفكار الاباضية المنتشرة هناك.

ومن المرجح أن طبيعة الصراع بين الرستميين والأدارسة كان يحدده موقف القبائل من طرفي النزاع، لذلك اتخذ كلا الطرفين محاولات التوسع في مواطن هذه القبائل وكسب السيطرة عليها. وبمرور الزمن، فإن الرستميين لم يقابلوا الأدارسة بالرد علي مؤامراتهم ولم يكن بوسعهم مجاراة الأدارسة في تدبير المكائد وإحداث الشقاق، وعزفوا نهائياً عن محاولة التحرش بهم علي الرغم مما آلت إليه إمارة الأدارسة من التمزق السياسي والضعف ويبدو أن سياسة الرستميين بعدم مناجزة الأدارسة والرد عليهم بالمثل خلقت ما يمكننا تسميته بالعجز الرستمي أمام تدخلات الأدارسة في الشؤون الداخلية لإمارة الرستميين وتحريض الخارجين و الثوار عليها وتزويدهم بما يتطلب لإسقاط نظام الخوارج الاباضية في تاهرت مما أسفر عنه انتهاء الصراع بين الطرفين بتغلب الأدارسة و تقلص نفوذ الرستميين واستكانتهم (2).

(1) النفوسي، المصدر السابق ص 145.

(2) د. محمود إسماعيل: المرجع السابق ص 149.

العلاقات بين الرستميين وأمويي الأندلس:

نهج الرستميون في علاقاتهم مع أمويي الأندلس سياسة ودية ربما أوجبتها الضرورات السياسية بهدف توطيد العلاقات بينهما، إذ يتعرض الطرفان لعداء كل من الأغالبة والأدارسة وذلك علي الرغم من خلافاتهما المذهبية والتاريخية وقد بلغت العلاقات بين تاهرت وقرطبة إلي درجة التحالف السياسي وتبادل السفارات و الهدايا، كما قامت العلاقات تجارية فكانت السفن تتردد بين وهران والمرية حاملة المتاجر والعلماء والمسافرين، واستقبلت حاضرة الرستميين تاهرت كثيراً من أهل الأندلس حتى إنهم أصبحوا جالية أندلسية كبيرة ⁽¹⁾.

ومن الجدير بالذكر، أنه لما كان الأمويون في الأندلس يتطلعون إلي تسقط أخبار المشرق الإسلامي، وخصوصاً بلاد الشام أرض آبائهم وموطن تراثهم ومجدهم والاتصال به ثقافياً وحضارياً واقتصادياً فلا بد أن يحافظوا علي منفذ المغرب الأوسط، لأن المغربيين الأدنى والأقصى كانت تقوم فيه علي التوالي أمارتا الأغالبة والأدارسة المعاديتان مبدئياً ومذهبياً لهم فالأولي موالية للعباسيين والثانية ترفع شعار العلويين، وجميع هؤلاء أعداء تقليديون لبنى أمية، والظاهر أن العلاقات بين أمويي قرطبة وأصحاب تاهرت قد توطدت بعد تأسيس مدينة تاهرت وذلك باستعانة عبد الرحمن بن رستم بالمهندسين والمعماريين ومن لهم خبرة بإنشاء المدن وتعميرها من الاندلسيين، إذ تعذرت علاقاتهما واكتسبت رسوخاً ومودة حتى أن صاحب تاهرت أمر بتسمية احدي أبواب مدينته باسم " باب الأندلس " ⁽²⁾.

⁽¹⁾ ومن العلماء الذين اختلفوا إلي تاهرت، عمران بن مروان الاندلسي ومسعود الاندلسي اللذين أصبحا عضوي مجلس الشورى في عهد عبد الرحمن بن رستم (أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة، الورقة 104 ثم انظر :

marcais, G . la berberie musulane Et l'orient au Mogen age (Paris, 1964)P104

⁽²⁾ أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ص 66.

أما العلاقات العدائية التي سادت بين الطرفين فلم تكن إلا لفرة قصيرة حيث زالت الجفوة بعد وفاة الحكم المستنصر سنة 206هـ/821 م⁽¹⁾ وعادت العلاقات التقليدية بينهما فوصلت البعوث إلى "دار المغرب" وهي تاهرت كما اتخذ بعض الأمراء الأندلسيين الوزراء والحجاب والقواد من البيت الرستمي و بظهور الفاطميين على المسرح السياسي في بلاد المغرب تعرضت القوي السياسية جميعها إلى التهديد الفاطمي سواء أكانت في المغرب أو في الأندلس مما استوجب القيام بعمل مشترك بين تاهرت وقرطبة لاتقاء هذا الخطر الذي بات وشيك الوقوع لكن شيئا من ذلك لم يحدث فقد سقطت إمارة الرستميين سنة 297هـ/909 م بيد الفاطميين ولم يبق حكام قرطبة لنجدتهم.

⁽¹⁾ بدأ انهيار العلاقات و ترديها منذ نزل الأمير الحكم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالحكم المستنصر إقليم الجزيرة الخضراء بالأندلس حيث كان يعج بالسكان و اغلبهم من الاباضيين فقتل أكثرهم (ابن القوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس ص 71 - 72).

الفصل السادس

إمارة الأدارسة في المغرب الأقصى

- 1- تمهيد
- 2- قيام إمارة الأدارسة
- 3- مدينة فاس حاضرة الأدارسة
- 4- العلاقات السياسية
- 5- الأدارسة وبنو العباس

obeikandi.com

إمارة الأدارسة في المغرب الاقصى

(172-375هـ / 788-985م)

تمهيد:

الأدارسة، نسبة إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن الذي يرجع نسبة إلى علي بن أبي طالب (رض) وكان قد فر من الجيش العباسي علي اثر هزيمته في معركة "فخ" المنطقة الواقعة بين مكة والمدنية سنة 169هـ ونفذ إلى المغرب الإسلامي وهناك أقام مع أعوانه و أنصاره إمارة "الأدارسة" التي لعبت دورا مهما في تاريخ المنطقة أما أخوه يحيى بن عبد الله فقد توجه إلى بلاد الدير وقضى هناك ويشير البكري إلى أن إدريس بن عبد الله أفلت من يد العباسيين بصحبة مولاه راشد فألبسه دراعة وعمامة وصيره كالغلام يخدمه ⁽¹⁾ وعن طريق مصر استطاع إدريس بن عبد الله ومولاه راشد الوصول إلى القيروان ثم إلى مدينه تلمسان ثم ارتحل نحو بلاد طنجة ونزلا في مدينة "وليلي" ⁽²⁾ سنة 172، واتخذت هذه المدينة

⁽¹⁾ المغرب في ذكر بلاد أفريقيا و المغرب ص 118 (و هناك روايتان في طريقة وصول إدريس بن عبد الله إلى المغرب الاقصى تتلخص الأولى في أن إدريس و مولاه راشد مرا بمصر بدار مشيده فجلسا علي باب الدار فأرهما صاحب الدار و عرف أنهما من الحجاز فقال له راشد: هذا إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب خرج من موضعه فسلم من القتل و قد جئت به أريد بلاد المغرب لعله بأمن فيه و يعجز من يطالبه فأدخلهما منزله وسترهما حتى هيا لهما خروج رفقة إلى افريقية فاكتري لهما جملا وزودهما وكساهما فدخل إدريس ومولاه راشد المغرب فأقاما بين ظهرائهم (المصدر السابق ص 118-119) أما الرواية الثانية فيذكرها ابن عذاري علي أنهما نزلا و كان متولي يريداه حينذاك " واضح المسكين " و كان يميل للعويين و ينتصر لهم في الباطن و قد بلغه وصول إدريس إلى مصر فساعدته علي الفرار إلى المغرب (البيان المغرب ج 1 ص 63، وربما تكون هذه الرواية صحيحة واقرب إلى الحقيقة بدليل إن الخليفة الهادي بن المهدي العباسي قتل واضحا بما بلغه الدور الذي قام به.

⁽²⁾ وهي مدينة فولوبيلس colubillis الرومانية و تقع علي سفح جبل زرهون و كانت مركزا و مستقرا لقبيلة اوربة التي ناحرت إدريس بن عبد الله.

قاعدة ومنطلقاً لإدريس بن عبد الله لأعدائه من العلويين وأنصاره من قبائل أوربة ومغيلة وصدنية وقبائل زناته وهي زواوة ولواتة وسدراتة ونفزة ومكناسة وغمارة حيث عبأ منهم جيشاً كثيفاً أعده لغزو بلاد تامسنا ومناطقها التي كان سكانها من النصارى واليهود والمجوس والوثنيين فأخضعها ونشر الإسلام فيها، ثم لم يلبث أن غزا في السنة التالية حصون فندلاوة و مديونة و بهلوله و قلاع غاثة التي كانت تتحصن بها هذه القبائل واستولي عليها ثم عاد لمهاجمة مدينة تلمسان وأخضع القبائل الضاربة حولها وهي مغراوة و بني يفرن⁽¹⁾.

ومن المفيد أن نذكر أنه لم تعترض إدريس بن عبد الله صعوبات في إقناع قبائل المغرب لدعوته إذ كانوا ينزعون بطبيعتهم إلى الاستغلال والتخلص من حكم الولاة العباسيين ثم أن الخوارج الذين سبقوا العلويين إلى هذه البلاد مهدوا الطريق أمام دعوتهم فكان المغرب قد حرثها الخوارج للعلويين وحين قدم دعائهم كان سلطان الخوارج قد زال فانتفعوا بغرسهم⁽²⁾. والظاهر أن العلويين قد زادوا على دعوة الخوارج ومعارضتهم بقولهم: إنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة لأنهم آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة وقد ورثوا علم النبوة فاكتمبوا عطفهم، ومعروف عن هذه القبائل أنهم كانوا موقرين لرجال الدين ومعظمين للأولياء الصالحين.

(1) ابن خلدون العبر و ديوان المبتدأ والخبر ج 4 ص 25.

(2) د. حسن احمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص 408.

قيام إمارة الأدارسة:

لقد نجحت حركة إدريس بن عبد الله بإقامة أمارته بفضل اعتماده سياسية الغزو المسلح وتنمية للمبادئ التي كانت قبائل المغرب تري فيها خير دليل لإقامة كيان مستقل لهم عن النفوذ العباسي. والحق أن الأدارسة كانوا يعبرون تعبيراً صحيحاً عن شعور هذه القبائل رغبتهم الحقيقية في الاستقلال ولا غرور إن ينهض الأدارسة بأعباء قيام إمارة تكون القبائل المغربية وهم أهل البلاد الأصليين مادتها الأساسية حيث استمرت هذه الإمارة حتى سنة 375 هو ذلك علي الرغم من التحديات التي كانت تتعرض لها من الفاطميين في المغرب ومن أمويي الأندلس وقد أهلها ذلك علي ما يبداوا لتعمر أطول فترة من باقي إمارات المغرب الإسلامي. وكان لقيام إمارة الأدارسة صدي عميق الأثر في جميع أنحاء العالم الإسلامي وخاصة بعد إن توطدت وتدعمت أسسها، إذ كان أعدائها يتدبرون الإيقاع بها وينسقون الخطط لإسقاطها، وأدرك العباسيون أنه لم يعد بالإمكان الاستمرار علي سياسة القوة التي اعتمدوها للقضاء علي حركة الأدارسة وإماراتهم بسبب تهديدهم لجميع أفريقية ومصر و اغاراتهم علي أملاك العباسيين الواقعة إلي الشرق من أراضيهم⁽¹⁾ فلم يكن إمام العباسيين إلا اللجوء إلي وضع الخطط الكفيلة بإيقاف زحف الأدارسة إذ عملوا إلي خلق كيان سياسي موالي لهم تمثل بإمارة الأغلبية لتكون حاجز بين أملاكهم وبين إمارة الأدارسة⁽²⁾.

أما الإجراء الآخر الذي اتخذه العباسيون فيتمثل بمحاولة القضاء علي إدريس بن عبد الله و اغتياله و إخماد الحركة الانفصالية و رأسها إمارة الأدارسة في بلاد

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 6 ص 43-45.

(2) عهد الخليفة هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي بولاية توفي لتكون نواة لإمارة تغيد توسع الأدارسة و تمنع تغفل نفوذهم في بلاد المغرب و تمنعهم من الاستحواذ علي أملاك العباسيين التي كانت ندر موارد غير قليلة لهم (ابن الأثير، المصدر السابق ص 56).

المغرب الأقصى قدس له هارون الرشيد من قتله بالسهم سنة 177هـ⁽¹⁾ غير إن مقتل إدريس بن عبد الله لم يؤثر في مسيرة الحركة الانفصالية ولم يقضي علي إمارة الأدارسة فقد حافظ هؤلاء علي كيان إمارتهم ما يقارب العشر سنوات حتى تسلم إدريس الثاني الذي لم يكن قد ولد بعد⁽²⁾، دفعة الحكم فبايعته القبائل والتفت حوله .

مدينه فاس حاضرة الأدارسة:

يمكن القول، أن إدريس بن إدريس (الثاني) هو المؤسس الحقيقي لإمارة الأدارسة فقد بايعته قبائل زناته و أوربة و صنهاجة و غمارة، فساعدته ذلك علي استكمال قوته العسكرية بتعبئة جيشه و إعداده و كذلك علي توطيد حكمه و الظاهر أن قوه بلاده وصنعتها واستتاب الأمن فيها، اقنع الكثيرين من العناصر والأفراد من المغاربة والمشاركة للنزوح إليه والاستقرار في بلاده و أخذت مدينه و ليلي، تستقبل الوافدين من جميع أنحاء المغرب و المشرق و الأندلس فأنشأوا الروابط بينهم وبنوا الأسواق والميادين، وأصبح لهم إحياء تعرف بأسمائهم ولكن

⁽¹⁾ استشار هارون الرشيد احد مستشاريه بأمر إدريس فأشار عليه إن يبعث إلي إدريس رجلاً تتوفر فيه صفات الذكاء والمكر والدهاء مع البلاغة والجرأة فوقع اختياره علي سليمان بن جرير الذي كان يعرف بالشماخ وأمره بالانطلاق إلي بلاد المغرب فذهب و هو يتظاهر بالطب حتى وصل إلي دليلى فاتصل فانس إليه و اتخذ صاحبا و نديما فكان إدريس في هذا البلد يحي إلي مجالسة المشارفة و محادثتهم و اخذ الشماخ يترصد لاغتيا ل إدريس بالسهم فلما و انتته الفرصة بغياب مولاه راشد أعطاه قارورة طيب يتطيب بها و كانت مسمومة فلما شمها أصابه السم و توفي علي اثر ذلك و هرب الشماخ فطلبه راشد حتى أدركه بوادي ملوية فضربه بسيفه ففقط يده ولكن الشماخ استطاع عبور الوادي ثم واصل سيرة إلي بغداد فولاه الخليفة علي بريد مصر (انظر: السلاوي الاستقصا ج 1 ص 159 البكري المغرب ص 121 ابن عذارى البيان المغرب ج 1 ص 299 ابن الأثير الكامل ج 5 ص 90) و قيل سمه بوضع ذر ور سموم في سن له موجوعة و قيل سمه في دلاعه (و هو فاكهة الرقي في العراق) .

⁽²⁾ توفي إدريس بن عبد الله دون ولد و لكنه ترك جارية له اسمها كنزة حاملاً فانتظر أعوانه و أنصاره حتى وصفت الجارية غلاماً سمي ادريسا فبايعته جميع القبائل من زناته وأوربة وصفهاجة و غمارة (البكري المصدر نفوسة ص 22 الجزنائي زهرة الآسي في بناء مدينة فاس ص 19)

بمرور الزمن أصبحت المدينة تضيق بهم فعزم علي الانتقال إلي مدينة جديدة يؤسسها ويسكنها هو وخاصته من قومه ⁽¹⁾. وفي 192 هـ شرع ببناء مدينة فاس ⁽²⁾، ولما أتمها أمر الناس بالانتقال إليها وأشار عليهم ببناء الدور والمنازل وغرس الغروس والأشجار ثم أقام سورها وانزل الوافدين القيروان بالعدوة الغربية وسميت "بعدوة القرويين" وقد أصبح لهاتين العدوتين شأن كبير في تاريخ المدينة السياسي الاجتماعي، وتفتتح في سور عدوة الاندلسيين أبواب عدة أهمها باب القبلة وباب الكنيسة أو الخوخة وباب أبي سيفين وباب جراوة وباب الشيبوبة وباب المخفية أما أبواب سور عدوة القرويين فمنها باب إفريقية وباب القلعة وباب الحديد وباب الفرج أو السلسلة وباب الفصيل أو النبقة ⁽³⁾.

ويقدم المستشرق المتأسبن ليفي بروفنسال نظرية جديدة في نشأة مدينة فاس وتقوم أساساً علي أن إدريس بن عبد الله، أسس المدينة سنة 172 هـ في الموقع التي تقع عليه عدوة الأندلس وأن إدريس بن إدريس أسس عدوة القرويين سنة 192 هـ في غرب مدينة أبيه وعلي الضفة اليسري من وادي فاس وفي الموضع المعروف " بدار القيطون " ⁽⁴⁾ ومن المرجح أن تكون الآراء التي جاء بها بروفنسال في هذا الجانب صحيحة لأنه ليس من المعقول أن ينتظر الإدارة 20 سنة لكي يؤسسوا لهم مدينة تكون مقراً ومركزاً لإمارتهم ثم إن قيام الدول والإمارات المستقلة في المغرب الإسلامي خلال القرن الثاني الهجري لابد أن يستتبعه مباشرة

⁽¹⁾ يقدر بن خلدون محمد وفد إلي بلاد الإدارة من عرب الجزيرة بخسمائة فارس من العنسيين و الازد و الخزرج و مدلج و بني يحصب حتى أصبح لهم نفوذ في الإمارة فاستوزر منهم إدريس عمير بن مصعب الازدي الملقب بالملجوم (العبر ج 4 ص 26 29، انظر أيضا الجزناني المصدر السابق ص 13)
⁽²⁾ يقال أن إدريس ابتدأ بحفر الأساس بفاس ذهنية فسميت المدينة فاساً و قيل انه وجد في الحفير فاس كبير من الذهب، كما قيل أن مدينه أثرية قديمة كانت تقوم في هذا الموضع كان اسمها "ساف" فسميت المدينة علي هذا الاسم مقتوبا (أبي زرع الأنيس المطرب، الجزناني زهرة الأس، بروفنسال الإسلام في المغرب و الأندلس).

⁽³⁾ الجزناني، المصدر السابق ص 19 - 20.

⁽⁴⁾ ونجد استعراضاً للأدلة المادية و التاريخية التي يسوقها بروفنسال لإثبات نظريته (الإسلام في المغرب و الأندلس ص 29 - 30)

قيام مدن جديدة تكون مراكز سياسية وعسكرية وثقافية لها، أي اقتران قيام هذه الكيانات بتأسيس عواصم وحواجز لها، فلاشك في أن إدريس بن عبد الله أسس مدينة فاس إقْداء ببني مدرار في سجلماسة و بالرستميين في تاهرت.

ونقرأ عن الجغرافيين المسلمين تفصيلات مهمة عن مدينه فاس ابتداءً من القرن الثالث الهجري حتى الخامس فيقول اليعقوبي عنها: "أنها "مدينة جميلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما أميران مختلفان" (1). ويصفها البكري " أنها مدينتان مقترنتان و بينهما نهر مطرد و عدة القرويين غربي عدوة الأندلسيين" (2) أما الإدريسي فيذكر "أنها مدينتين بينهما نهر و المدينة الشمالية تسمى القرويين و تسمى الجنوبية الأندلس" (3)

ومما يلفت الانتباه في عهد إدريس بن إدريس تأمر بعض مشايخ القبائل المغربية المنظمة إليه وضده ومنهم اسحق بن محمود الاوربي كبير قبيلة أوربة الذي اتصل بالأغالبة بغرض الإطاحة به (4)، وبهلول بن عبد الواحد المظفر بالذي كان من معتمدي إدريس و أحد أركان إمارته حيث تأمر هو الآخر مع الأغالبة حتى "انحرف عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العباسية" (5) مما اضطر إدريس في نهاية المطاف إلى طلب عقد صلح مع إبراهيم بن الأغلب ليبادر إلى تفويت الفرصة على متآمريه.

لقد أقام إدريس بن إدريس في مدينة فاس ولم يغادرها خشية ما تدبره بعض العناصر من مؤامرات ربما يروح هو ضحيتها في مدينة وليلي، ولكنه توفي سنة 213هـ (6) مخلفاً ابنه محمد الذي أشرك معه أخوته في الحكم فولاهم في إمارته

(1) كتاب البلدان ص 357.

(2) البكري، المصدر السابق ص115.

(3) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص 75-76.

(4) حيث سعي إلى اغتياله سنة 192هـ (البكري المصدر السابق ص23).

(5) ابن خلدون العبر ج 4 ص 27.

(6) جاء في المصادر أن سبب وفاته تناوله لفاكهة العنب فغض بجهة منه فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات، وقيل أنه مات مسموماً (البكري المصدر السابق ص123-124، ابن عذاري المصدر السابق ج 1 ص 211، ابن الخطيب المصدر السابق ص202).

التي قسمها إلى أعمال⁽¹⁾ واختص هو بحاضرتة فاس التي أصبحت مركزاً سياسياً احتل شهرة مرموقة بجميع أنحاء العالم الإسلامي.

واتسم عهد محمد بن إدريس بسيادة الأمن والاستقرار السياسي وبتوطد العلاقات مع القوى السياسية في المغرب الإسلامي سوي ما تشير إليها المصادر من الخلافات الداخلية بين الأخوة حول الاستئثار بالحكم والمتمردات التي استطاع القضاء عليها بالقوة⁽²⁾.

وخلف محمد بن إدريس بعد وفاته سنة 211 هـ خلفاء كان أكثرهم شهرة يحيى بن محمد بن إدريس الذي شهدت فاس في عهده ازدهارا واضحا في العمران حيث بنيت فيها الحمامات والفنادق للتجار ومهدت الأرباض ورحل إليها الناس من المدن القاصية⁽³⁾، أما في عهد علي بن عمر بن إدريس فقد تعرض الأدارسة الى خطر الزوال على يد الخوارج الصفرية الذي كان يقود جيشهم عبد الرازق الفهري، حيث استطاع هذا الأخير الدخول الى مدينة فاس والاستيلاء على عدوة الأندلسيين فما كان من أهل عدوة القرويين إلا أن يولوا على أنفسهم يحيى بن القاسم الذي عرف "بالعدام" فقد تمكن من صد هجوم الخوارج وإخراجهم من عدوة الأندلسيين⁽⁴⁾.

(1) خلف إدريس بن إدريس من الولد اثن عشر وهم: محمد و أحمد و عبيد الله وعيسى وإدريس وجعفر وحمزة ويحيى وعبد الله والقاسم وداود وعمر (البكري المصدر السابق ص 124، ابن عذارى المصدر السابق ص 211، ابن الخطيب المصدر السابق ص 202) وقد ولى أخاه القاسم بلاد صنهاجة الهبط و غمارة وولى داوود بلاد هواره وتسول وتازي و قبائل مكناسة و غياثة وأخاه عبد الله أغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى وأخاه يحيى ولاء أصيل والعرائش ولاد زواغة وولى أخاه عيسى بلاد شالة وسلا وازمور وتامسنا وبرغواطة، أما احمد فولاه مدينة مكناسة وتادلا و ولى أخاه حمزة مدينة ولبلي وأعمالها وأبقى أخوته الآخرين يكفالة جدته كنزة لصغر سنهم.

(2) منها حركة أخيه عيسى في منطقة سالة وامتناع أخيه القاسم عن محاربة أخيه عيسى وإخماد حركته فاضطر محمد بن إدريس إلى توجيه أخيه عمر صاح بمناطق صنهاجة وغمارة للقضاء على عيسى والقاسم حيث أمده بجيش استطاع به عمر أن يهزم أخويه ويتولى ولايتهما (ابن خلدون المصدر السابق ص 28، السلاوي، الاستقصا ج 1 ص 173).

(3) ابن خلدون المصدر السابق ص 29.

(4) م.ن. ص 31.

غير أن أعلى بني إدريس ملكاً وأعظمهم سلطاناً على حد قول بن خلدون هو يحيى بن إدري بن عمر بن إدريس الذي كان فقيهاً عالماً بالحديث " ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة " (1). ولكن في عهد هذا الأمير بدأت إمارة الأدارسة تتعرض للخطر الفاطمي ففي سنة 305هـ، إلتقى جيش الأدارسة مع جيوش الفاطميين التي كان يقودها مصالة بن حبوس الكتامي، حيث هزم الأدارسة وعاد يحيى بن إدريس إلى عاصمته فاس مخذولاً فحاصره الجيش الفاطمي فلم يكن أمام يحيى بن إدريس إلا طلب الصلح على مال يؤديه للفاطميين ومبايعتهم، فجرد من أعماله وأمواله وتركت له فاس ليكون أميراً عليها. ولم يشأ الفاطميون أن يتركوا الأدارسة، فقد أقاموا على فاس ربحان الكتامي وهو من كبار قادتهم غير أن عهده لم يدم طويلاً فبعد ثلاثة أشهر من ولايته ثار في مدينة فاس الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف "بالحجام" واستولى عليها وحكمها عامين، ولكن الفاطميين راحوا يدبرون نهاية للأدارسة بتمكين موسى بن أبي العافية المكناسي وتشجيعه على تصفية أسرة الأدارسة وإجلاتهم عن فاس ونفيهم إلى مدينة حجر النسر "الحجر" (2) والاستيلاء على عدوة الاندلسيين، وبذلك سقطت إمارة الأدارسة بحلول سنة 375هـ.

(1) م.ن. ص 32.

(2) وتسمى قلعة النسر وهي الملجأ الذي اعتمد به الأدارسة في شمال المغرب الأقصى بناه إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس و تقع على جبل شامخ الذري أرضه خصيبة كثيرة الخيرات وعى مقربة من أحواز سبتة ويجعلها البعض بين تطوان وسفثاون (البكري المغرب ص126) وقال ابن عذاري: "أجلى موسى بن أبي العافية بن إدريس أجمعين عن مواضعهم وصاروا في مدينة حجر النسر مقهورين وحجر النسر حصن مائع بناه إبراهيم بن القاسم بن إدريس وعزم موسى على محاصرتهم في هذا الحصن واستأصلهم فأخذ عليه في ذلك أكابر المغرب فقالوا له: لقد أجليتهم أتريد أن تقتل بني إدريس أجمعين وانت رجل من البربر!! فأعرض عن ذلك ولاذ عنهم بعسكره" (البيان المغرب ج 1 ص 214).

العلاقات السياسية

الأداسة وبنو العباس:

تتسم العلاقات بين الأداسة والعباسيين بطابع عدائي منذ أن سعى إدريس بن عبد الله إلى تكوين إمارة مستقلة عن نفوذ ولاة العباسيين في المغرب، وإذا أردنا أن نفهم طبيعة هذه العلاقات وجذورها التاريخية فعلينا أن نقرأ علاقات الأداسة مع الأغالبة وهم خلفاء بني العباس حيث سخر هؤلاء لمقاومة نفوذ الأداسة والحد من توسعهم وحسر أخطارهم وتهديدهم لممتلكات الدولة العباسية ومواليهم وأنصارهم.

وقد أدرك هارون الرشيد، بعد أن تناهى إليه دخول أغلب قبائل المغرب في طاعة إدريس بن عبد الله و تصميمه علي إقامة إمارة مستقلة عن النفوذ العباسي، أنه لا طاقة لجيوش العباسيين علي الوصول إلي منطقة السوسي التي راجت فيها دعوة الأداسة، فإمارة الأداسة أصبحت حقيقة واقعة في هذه المنطقة و علي العباسيين أن يعالجوا أمرها بما يتوافر لديهم من إمكانيات سياسية أو عسكرية و علي الرغم من نجاح الخطة التي وضعها هارون الرشيد بتصفية إدريس بن عبد الله لكن العباسيون عجزوا عن الإطاحة بالأداسة في عهد إدريس بن إدريس، فأوكل العباسيون هذه المهمة إلي الأغالبة ليقوموا بهذا الدور و الظاهر أن الأغالبة كانوا لا يمتلكون المقدرة والقوة علي مجابهة أعداء حلفائهم فطفقوا يستميلون بعض القبائل المغربية و يكثر من الاتصال بزعمائهم لإبعادهم عن الأداسة أو استعدادهم عليهم، كما حاولوا التدخل في الشؤون الداخلية الأداسة وذلك بتسخير صنعائهم للثورة ضدهم في مدينه فاس، ولكن علي ما يبدو أن جميع هذه المحاولات قد باءت بالفشل و استمر قيام إمارة الأداسة التي كان العباسيون ينظرون إليها علي أنها خطر يهدد بالمغرب الإسلامي ومصر.

ثم أن الأغالبة و بمرور الزمن لم يكن في صالحهم أن يتأصل عداؤهم مع الأداسة وان تتخذ علاقاتهم السياسية طابعا عدائياً يؤدي إلي الصراع بسبب مصالحهم المشتركة لذلك فليس في وسعهم إلا قبول دعوة الأداسة بعقد الصلح

بين الطرفين ⁽¹⁾ وأن يكف كل متهما عن الآخر من ناحيته ⁽²⁾ فيشير ابن الخطيب إلى أن إدريس بن عبد الله بن الحسن كتب إلى إبراهيم بن الأغلب بن سالم " يستكفيه عن ناحيته و يذكره بقرابته من رسول الله (ص) فأجابه عن كتابه و وادعه ولم تجر بينهما حرب إلا ما ذكر عنه " ⁽³⁾

ومن المرجح، أن الأغلبة كانوا يدركون أن الأدارسة قد أسهموا إسهاما فعالا في خدمة العالم الإسلامي، من حيث أنهم ثبتوا القبائل المغربية علي الإسلام بل هم الرواد والممهدون الحقيقيون لظهور هذه القبائل في المجال الإسلامي ظهورا واضحا ⁽⁴⁾ فلا غرو أن يستجيب الأدارسة للظروف والأحوال التي يمر بها الغرب الإسلامي فيقتنعوا أن النزاع المسلح وما يخلفه من علاقات عدائية وبخاصة مع الأدارسة لا يخدم مصالحهم وكذلك لا يساعد علي استقرار المنطقة وأمنها لذلك تبدو أهمية الإسلام والموادعة وتحاشي الصدام في نظر الأغلبة تحتل الأولوية في سياساتهم والأغلبة بحكم تحالفهم مع العباسيين من جهة فإنهم يسعون إلى التوفيق بين مصالح الإمارات والدول والقوي الإسلامية في المغرب وبين مطالب الخلافة العباسية من جهة أخرى كما إنهم أحيانا يرون في بعض الإجراءات التي كان يتخذها الخليفة أو توجيهاته إليهم خروجاً عن الواقع السياسي التي تعيشه المنطقة لا يسعهم الامتنال له، وقد ظهر ذلك واضحا من كتاب الخليفة العباسي المأمون إلى الأمير زيادة الله بن إبراهيم 223/201 هـ يحثه فيه علي الدعاء إلى عبدالله بن طاهر علي منابر افريقية، فغضب الأمير الاغلبى وهدد الخليفة بخروجه عن طاعة العباسيين و انضمامه إلى الأدارسة ⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ ابن خلدون، المصدر السابق ص 27.

⁽²⁾ ابن الأثير ، الكامل ج 6 ص 56.

⁽³⁾ أعمال الإعلام ق 3 ص 14 - 15.

⁽⁴⁾ د. حسن أحمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص 412.

⁽⁵⁾ لما استمر العباسيون يثقلون الأغلبة بمطالبهم، أرسل زيادة الله بن إبراهيم، كيسا يحتوي علي ألف دينار مضروبة بأسماء بني إدريس هذا يشير إلي أن الأدارسة يشكلون إمارة قوية في المنطقة وأن الأمير الاغلبى كان تهديد الخليفة بانضمام إمارته إلي صف أعداء الخلافة الأقوياء (ابن خلدون، المصدر السابق ج 4 ص 422؛ ابن الخطيب، المصدر السابق ص 17).

ومعروف انه بظهور الأدارسة، ترسخت الأفكار الإسلامية بين قبائل المغرب واستطاع الأدارسة بمساعدتهم في المضي بنشر الإسلام في غرب إفريقيا وفي حوض السنغال، وهذه الظاهرة كانت تستلقت انتباه العباسيين، مما يترتب عليهم اتخاذ تدابير في المجالات السياسية والعسكرية لغرض التعقيم علي نشاط الأدارسة في هذا المجال غير أن جميع هذه التدابير والخطط قد فشلت نظرا لتنائي بلاد المغرب عن المشرق الإسلامي وعجز جيوشهم عن الوصول إليها، فضلا عن قوة إمارة الأدارسة وكثرة جيوشها، وقد جاء علي لسان الخليفة هارون الرشيد وهو يستشير رجاله في أمر إدريس بن عبدالله الذي اشتهر أمره واسمه فقال: "... وقد هالني أمره " (1) مما يشير إلي أن إمارة الأدارسة أصبحت قوية منيعة.

ومهما يكن من أمر فإن إمارة الأدارسة لم تصمد أمام مكائد الولاة العباسيين وحلفائهم من الأغالبة، فحسب، بل أنها كانت تذب عن نفسها عدوان القوي الأخرى في المنطقة أيضا، وتثبت أقدامها وتتحدى الصعاب التي كانت تواجهها، مما جعلها تحكم أكثر من قرن (172-375هـ) وامتد نفوذها من السوس الأقصى إلي وهران، وقد عول الأدارسة علي ذلك بتجنيد القبائل وتعبئتها ضد أعدائهم، وهكذا لم يرضخ الأدارسة إلي التهديدات التي كان يطلقها أعداؤهم.

ونعتقد، أن الأدارسة، لم يكن يتح لهم مثل هذا الموقف لو لم يحظوا بالتأييد من أغلب قبائل المغرب القوية ومنها أوربة وفعلية و صندية وقبائل زناتة وهي زواوة ولواتة وسدراتة ونفزة ومكناسة وغمارة وكذلك مما زاد في نفوذ الأدارسة أن الحركة الانفصالية عن النفوذ العباسي في بلاد المغرب اقترنت بظهورهم فقد حمل لواءها مؤسسو إماراتهم الأول و لكن من المفيد أن نذكر أن المواقعة التي تمت بين الأدارسة والفاطميين و أن الأدارسة حكموا باسم الفاطميين (2) ووقوع الأدارسة بين خصميه متنازعين الفاطميون في المغرب والأمويون في الأندلس أضعف الأدارسة وأفقد إمارتهم قوتها ونفوذها وسبب لها كثيرا من المتاعب مما أفضى إلي سقوطها وزوالها.

(1) ابن أبي زرع، الأتيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينه فاس ص 203؛ البكري، المصدر السابق ص 119 ابن عذاري، المصدر السابق ص 83، ابن الخطيب، المصدر السابق ص 192-193؛ د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 471 نقلا عن

leve- Provençal, Extrandes Historien arabes P 18

(2) السلاوي، الاستقصا ج 1 ص 80 - 86 ابن عذاري، المصدر السابق ج 1 ص 212 - 213.

obeikandi.com

الفصل السابع

إمارة الأغالبة في المغرب الأدنى

- 1- فتح جزيرة صقلية
- 2- القيروان عاصمة بني الأغلب
- 3- العلاقات السياسية
الأمراء الأغالبة والخلفاء العباسيين

obeikandi.com

إمارة الأغالبة في المغرب الادني

(184 – 296 هـ / 800 – 908 م)

ينتسب الأغالبة إلى إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي، من قواد جيش الخليفة العباسي هارون الرشيد، حيث عهد إليه هذا الأخير بإقامة إمارة يتزعمها تتمتع بشبه استقلال ذاتي تستظل بالخلافة وتكون قاعدة سياسية وعسكرية للوقوف ضد القوي والحركات المناوئة للخلافة ولاستقطاب القبائل والعناصر المستقلة والمعتدلة والمتردة وقد امتنع الخليفة هارون الرشيد بهذا الإجراء نتيجة لاستمرار الحركات المناوئة والمعادية للخلافة، وخشية من انفصال المغرب الإسلامي عن النفوذ العباسي الذي كان ينظر إليه الخليفة بأنه بات وشيكاً، بل كان واقعاً ملموساً في ظروف هذه البلاد البعيدة بعد قيام إمارة الأدارسة التي أصبحت العدو التقليدي للنفوذ العباسي.

وقد تبين، أن اشتراط الخلافة لقيام إمارة الأغالبة في ولاية أفريقية المتمثلة في جهات المغرب الادني يقوم علي دعامتين أساسيتين، أولاهما، الضمانات المالية واستمرار تدفق الإيرادات علي بيت مال الخلافة في بغداد سواء تلك الإعانات التي كان يستحصلها ولاية أفريقية من مصر أو تلك التي فرضت فيما بعد⁽¹⁾ وثانيهما يتمثل في منع الأدارسة من سياسة التوسع أو الحد منها في الأقل وكذلك دفع الأغالبة إلي التدخل في شئون الأدارسة وإفشال دعواتهم بما يراه العباسيون، فصل بلاد المغرب عن العالم الإسلامي أو سعيهم في توحيد المغرب والمشرق تحت قيادتهم.

⁽¹⁾ كانت ولاية مصر ترسل إلي أفريقية مائة ألف دينار سنوياً لقمع حركات المعارضة ضد الخلافة، أما الأموال التي فرضها هارون الرشيد كضمان علي الأغالبة ويسمونها " جزية سنوية " فهي أربعون ألف دينار سنوياً، (ابن الأثير، الكامل ج، ص 56).

وفي مقابل ذلك، استحصل إبراهيم بن الأغلب عهد الخليفة هارون الرشيد و موافقته بتثبيته في ولاية أفريقية (منطقة تونس) سنة 184 هـ ومن ثم الاعتراف والإقرار له بتأسيس إمارة تدين بالولاء السياسي و التبعية الاسمية للخلافة واتخذ من القيروان عاصمة لولايته علي أن يقوم بتنفيذ التزاماته تجاه الخلافة فلا غرو أن يسعى إبراهيم بن الأغلب للتعبير عن إخلاصه و مودته للعباسيين فاتخذت علاقاته مع القوي المعادية للخلافة طابع العداء.

فناهض الرستميين والمدراربيين وذلك علي الرغم مما عرف عنه من المسالمة والحرص علي أسباب تلاشي الصراع غير انه لم يكن ثمة محيض عن الصدام أمام تشابك الحدود وعدم وضوح معالمها و بخاصة مع إمارة بني رستم و كذلك للبطش بالخوارج الصفرية المتيمين بالقيروان الذين كانوا يمالنون المدراربيين علي أن الأغلبية دأبوا علي ترضية الخلافة بإيفاء الضمانات المالية أما موقف الأغلبية من الأدارسة فقد اتسم بالعداء حيث بدأ الأغلبية يترصدون أعداء حلفائهم ويحاولون الإيقاع بهم متي استطاعوا إلي ذلك سبيلا فسخروا من اغتيال راشد مولي إدريس بن عبد الله مؤسس إمارة الأدارسة ⁽¹⁾، ووضعوا الخطط للكيد منهم باستمالة العناصر التي تؤيدهم والعمل علي بث روح الفرقة والتناحر بينهما سواء باسترضائها بالأموال أو بالتهديد و الوعيد .

ويخيل إلينا، إن التحالف بين العباسيين والأغلبية كان له ردود فعل عنيفة من جانب بعض العناصر التي لم يكن يروق لها أن تري أي أثر للعباسيين أو سياستهم في بلاد المغرب، فنجد في ثورة " حمديس " الذي ثار في مدينة تونس في عهد إبراهيم بن الأغلب وأبطل شعار بني العباس ذي اللون الأسود ⁽²⁾ وثورة أهل

(1) ابن خلدون، المصدر السابق ج 4 ص 420 .

(2) استطاع إبراهيم بن الأغلب أن يقمع هذه الثورة و يهزم حمديس من مدينة تونس و أن يقتل معظم أنصاره و مؤيديه الذين يقدر عددهم ابن الأثير بنحو عشرة آلاف ثائر (الكامل ج 5 ص 104) انظر أيضا ابن خلدون العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ج 4 ص 419.

طرابلس علي الولاة العباسيين أو ولاة الأغلبية سنة 189 هـ⁽¹⁾ وثورة عمران بن مجالد في مدينة القيروان سنة 195 هـ⁽²⁾ وثورة الجند في مدينة طرابلس سنة 196 هـ⁽³⁾ وثورة زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية في مدينة باجة سنة 207 هـ⁽⁴⁾ وثورة عمر بن معاوية القيسي في مدينة القصرين سنة 208 هـ⁽⁵⁾

(1) وكان أهل طرابلس قد ثاروا مرات عديدة قبل تولي إبراهيم بن الأغلب علي الولاة العباسيين لكن ثوراتهم قمعت وفي عهد إبراهيم ثاروا بعامله سفيان بن المضاء وهزموه واستخلفوه بإبراهيم بن سفيان فجرد إليهم إبراهيم بن الأغلب جيشا وهزمهم وقضى علي ثورتهم (ابن الأثير، المصدر السابق ص 121).

(2) وكان هذا من رجال إبراهيم بن الأغلب تمرد عليه وأيده رجل اسمه حريش بن التونسي واجتذبت هذه الثورة كثيرا من الأنصار والمؤيدين واتجه هؤلاء الثوار نحو مدينة العباسية التي كان إبراهيم بن الأغلب قد اعتصم فيها غير أن هذا الأخير استطاع تمزيق صفوف الثوار بعد أن هزم عمران بن مجالد الذي هرب وأقام بالزاب وفي عهد عبد الله بن إبراهيم أعطي لهذا الثائر الأمان ثم قتل (ابن الأثير، المصدر السابق ص 121، ابن خلدون، المصدر السابق ص 421 ابن الآبار، الحلة السيرة ص 105).

(3) قامت علي أثر تولية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب علي طرابلس حيث ثار الجند وحاصروه في داره وأرغموه علي الهروب إلي القيروان غير أن عبد الله اجتذب إلي الأنصار من بعض القبائل ببذل الأموال لهم فكثر حشوده وزحف بهم إلي طرابلس مرة أخرى وقمع ثورة الجند ولكن أباه عزله واستعمل سفيان بن المضاء فنارت قبيلة هواره وهاجمت طرابلس واحتلتها فاضطر إبراهيم بن الأغلب إلي تقليد ولده عبد الله القيادة الجيش فاستطاع هذا الأخير أن يسترد المدينة ويهزم هواره لكن الرستميين انجدوها وحاصروا طرابلس حتى وفاة إبراهيم بن الأغلب فاضطر ابنه عبد الله إلي مصالحة الرستميين وعقدوا اتفاقية بهذا الشأن وعاد عبد الله بموجبها إلي القيروان (ابن الأثير، المصدر السابق ص 156، ابن خلدون، المصدر السابق ص 420-421).

(4) استطاع زيادة الله بن إبراهيم قمع هذه الثورة وقتل القائمين بها (ابن عذاري البيان المغرب ج 1 ص 97).

(5) استولي علي مدينة القصرين وكان من قبل عاملا عليها، فجرد زيادة الله بن إبراهيم جيشا حاصره أياما ثم استنزله بالأمان هو وولديه، حباب وسمعان فقدر بهم وقتلهم ويروي ابن عذاري قصة مقتل عمرو بن معاوية وولديه علي يد زيادة الله بالتفصيل (البيان المغرب ج 1 ص 98، 97)

وثورة منصور بن نصير الطنبذي في مدينة طنبة سنة 209 هـ ⁽¹⁾ نقول أن هذه الثورات دليل ينهض علي احتجاج الثائرين ضد سياسة الأغالبة التي كانت تقوم علي التبعية و الولاء للخلافة العباسية و كذلك ضد الإجراءات التي كان يتخذها أمراء الأغالبة أو عمالهم في المغرب الادني من حين لآخر.

ومن المفيد أن نذكر أن عهد أبي العباس عبد الله بن إبراهيم 196-201 هـ قد اتسم بالهدوء والاستقرار نتيجة لجوره وتعسفه فقد وصف بأنه كان " متعسفاً جائراً ظلوماً مع رعيته أحدث بأفريقية وجوهاً من الظلم شنيعة " ⁽²⁾، كما قيل عنه انه كان "جماعاً للأموال" ⁽³⁾ أما زيادة الله بن إبراهيم 201-223 هـ فتبالغ المصادر في القول بأنه كان من أفضل أمراء الأغالبة، فقد كان يمتلك المقدرة والكفاية السياسية والعسكرية إلي جانب ما عُرف عنه من حب للعلم وتقدير

⁽¹⁾ وهي من اعنف الثورات التي واجهتها الأغالبة ومن أشدها خطراً عليهم حيث انتفضت أفريقية علي زيادة الله بن إبراهيم فلم يبق في يده سوي الساحل وقابي. وكان منصور الطنبذي يحاول الاستيلاء علي تونس فأرسل إليه زيادة الله قائده محمد بن حمزة وأمره بمباغتته غير أنه لم يجده فنزل بدار صناعة السفن في تونس وأرسل إليه وفداً من شيوخ تونس لاسترضائه لكن منصور تظاهر بالإخلاص للأغالبة وعرض عليهم المبيت بغية السير معهم إلي زيادة الله وأرسل إلي محمد بن حمزة بقرأ وغنما وعلفا فاطمأن لذلك غير أن منصور سجن الوفد وزحف مع أشياعه و أنصاره إلي تونس و هجموا ليلاً علي الجيش هناك و قتلوا والي المدينة فلم يكن أمام زيادة الله إلا توجيه عساكره إلي الطنبذي بقيادة و زيره الأغلب بن عبد الله بن الأغلب المعروف بـغلبون و لكن هذا الأخير هزم و استولي الثوار علي عدد من مدن أفريقية وخنلوا سلطة الأغالبة ثم زحفوا نحو القيروان و حاصروها ثم احتلوها لكن زيادة الله استطاع أن يهزمهم ويسترد المدينة. وفي 210 هـ عاود الثوار الهجوم علي القيروان واستولوا عليها وكتبوا إلي زيادة الله أن يرسل إليهم أفريقية ولكن أشير علي زيادة الله الاستعانة بقبيلة نفزاوة حيث ساعدته في إيقاع الهزيمة بالثوار وقتل قادتهم و في سنة 215 هـ تجددت الثورة في مدينة تونس و كان يقودها فضل بن أبي العنبر وأيده أنصار الطنبذي ولكن زيادة الله تمكن من إخمادها (ابن عذاري ، المصدر السابق ص 101 ابن الأثير المصدر السابق ص 158).

⁽²⁾ ابن عذاري ، المصدر السابق ص 95

⁽³⁾ ابن الخطيب المصدر السابق ص 15

للعلماء فأبنتي القصور ومراكز الثقافة في القيروان والعباسية وتونس وسوسة
وأسس نواة للأسطول الإسلامي المزود بالسفن الحربية و المعدات العسكرية .

فتح جزيرة صقلية:

لقد كانت سياسة الأغالبة تقتضي في هذه الفترة السعي لتحقيق الأهداف التي
رسموها لتوسعهم في حوض بحر الروم (البحر المتوسط) ففي سنة 206هـ
توجهت قطعانهم البحرية وأسطولها إلى الجزر القريبة من تونس ومنها جزيرة
"سرديانيا"⁽¹⁾ سردينيا، ولكن أهم عملية بحرية منظمة في عهد الأمير زيادة الله بن
إبراهيم التي استهدفت جزيرة صقلية حيث تم فتحها فأصبحت جزءاً من البلاد
الإسلامية و توارث المسلمون حكمها أكثر من قرنين من الزمان كانت فيها مصدراً
للثقافة و مركزاً من مراكز الحضارة العربية الإسلامية.

ولعل من أهم الدوافع لفتح جزيرة صقلية سنة 212هـ هو العامل الديني الذي
يتمثل بالجهاد في سبيل الله و في محاولة القضاء على غارات الروم البيزنطيين
على الثغور الإسلامية وعودة إلى السياسة التي جري عليها الأمويون في المبادرة
لشن الغارات على حدود البيزنطيين، أما العامل الاقتصادي فإن صقلية بلاد غنية و
تمثل أراضي جديدة يمكن استغلالها وقد لعب هذان الدافعان دورهما في التأليف و
التحشيد و إعداد الحملة⁽²⁾. إن اختيار القاضي أسد بن الفرات (وهو مصنف
الاسدية في الفقه على مذهب مالك بن أنس) قائداً للحملة عن روح الجهاد يضاف
إلى أن زيادة الله كان يحرص على الظهور بمظهر المجاهد المناغر أمام الرعية
كما انه كان يعاني من ثورات الجند فأراد أن يكسر شوكتهم و يتخلص منهم
بإشراكهم في الحرب هذا من جهة، ومن الجهة الاخرى فإن قائد الأسطول
البيزنطي " فيمي euphemiu " أعلن تمرده على الإمبراطور ميخائيل الثاني الذي
أمره بمواجهة الجيش الإسلامي حيث استولي هذا القائد على مدينة " سرقوسة
psiracuse " و نصب نفسه ملكاً على صقلية و لكن أتباعه و جنده خرجوا عليه

(1) ابن عذاري م. ن ص 97.

(2) د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 285.

فتمكن والي مدينة " بلزم palemo " من هزيمة فيمي والاستيلاء علي سرقوسة فلم يسع فيمي إلا اللجوء إلي الأغالبة حيث ساعدهم علي فتح الجزيرة اقلع أسطول الأغالبة و هو مؤلف من مائة مركب فيمي و استولي علي حصون كثيرة وحاصروا سرقوسة براً وبحراً وجاءتهم الإمدادات من أفريقية و بعد مناوشات بين الطرفين فتحوا مدينة بلزم وهي الميناء علي الساحل الشمالي للجزيرة و استمر جيش الأغالبة يحاصر المدن ثم يدخلها حتى سنة 223 هـ حيث توفي زيادة الله فلم يهنوا و قاتلوا الروم و هكذا بقيت جزيرة صقلية طوال عصر الأغالبة مركزاً لجهاد البيزنطيين ولم يكتف الأغالبة بهذه الجزيرة بل أغاروا علي جزيرة مالطة و احتلوها " (1)

لقد حكم إمارة الأغالبة بعد وفاة زيادة الله بن إبراهيم سنة 223 هـ عدد من الأمراء تميزت عهودهم بالاستقرار والهدوء، وهو أمر طبيعي لان الأمراء الأول كرسوا قوتهم لكي يذبوا عنها الأخطار ومؤامرات المعرضين والمناوين والثوار و إرساء دعائمها علي أسس متينة وتوطيدها بانتهاج سياسة داخلية تقوم علي الإصلاح وإرضاء الرعية و تظمين مصالحها. ونستدل علي قوة الأغالبة ومنعت إمارتهم بناءهم لمدينة العباسية سنة 227 هـ بالقرب من مدينة تاهرت وذلك علي الرغم من قيام الرستميين بتخريب هذه المدينة (2) غير أنها ظلت قائمة رمزاً للتحالف بين الأغالبة و العباسيين. والظاهر أن اهتمام الأغالبة بإقامة المدن والمنشآت والمساجد و القناطر وحفر المراجل (البرك لخرن المياه)علي شكل صهاريج واسعة مستديرة لمياه الشرب والري، وبناء أسوار المدن والحصون والمحارس علي ساحل البحر (3) إنما يدل هو الآخر علي فترات الانتعاش والهدوء السياسي الذي ساد منطقة الأغالبة ففي 252 هـ قام محمد بن حمدون الأندلسي المعافري وهو أحد وجهاء القيروان ببناء المسجد المنسوب إليه في القيروان (4)

(1) ابن عذاري، المصدر السابق ص 102 - 106 ابن الأثير المصدر السابق ص 187 ابن خلدون، المصدر السابق ص 426، د. إحسان عباس، العرب في صقلية ص 32.

(2) ابن الأثير، المصدر السابق ص 293.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق ص 431.

(4) ويعرف بمسجد الأبواب الثلاثة فقد بني بالأجر و الجص و الرخام وتعد زخارف واجهته من أروع الزخارف (د. السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ج2 ص 399.

وذلك في عهد الأمير أبي الغرائق محمد بن أحمد 261/205 هـ، كما أقام الأمير إبراهيم بن أحمد 289/261 هـ مدينة قادة وبني فيها جامع الفتح سنة 264 هـ⁽¹⁾ أما مظاهر الصراع علي السلطة في إمارة الأغلبية، فيبدو واضحاً في الفترة الواقعة من 231 - 290 هـ ولعل أوضح صورة لهذا الصراع ما جري بين الأمير أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم 226 - 242 هـ وأخيه أبي جعفر أحمد بن الأغلب، حيث كان هذا الأخير ساخطا علي أخيه بسبب تسلط وزيره علي أمور الإمارة، وكان من نتيجة خروجه علي أخيه أن استصفي خصومه واستأثر بالسلطة لنفسه ولم يبق لأخيه غير الاسم ولكن أحمد بن الأغلب عمد إلي تدبير مؤامرة للقبض علي أخيه و أعوانه و نفاهم إلي مصر⁽²⁾ وكذلك ما حدث بعد تولي الأمير أبي العباس عبد الله بن إبراهيم حيث نسج له ابنه زيادة الله مؤامرة لقتله غير أنها كشفت فقبض علي زيادة الله و أودع السجن و لكنه عول علي فتیان الصقالبة فأمرهم بقتل أبيه⁽³⁾ فتولي زيادة الله بن إبراهيم الإمارة سنة 290 - 296 هـ و قرر الانتقام من أعمامه فنفاهم ثم قتلهم وقتل الفتیان الصقالبة الذين قتلوا أخاه أبا عبد الله الملقب بالأحول⁽⁴⁾.

ومن المحتمل أن تكون سلسلة الثورات بوجه الأمراء والأغلبية قد أوهنت في قواهم و جعلتهم لا يقوون علي مواجهة أي خطر خارجي قد يتعرضون له و بخاصة بعد أن استكملت حلقات هذا الوهن بالصراع علي السلطة الذي أضعفهم كثيراً أمام تدفق الخطر الفاطمي الذي راح يهدد بلاد المغرب برمتها والتهام إماراته ودوله والقضاء علي قواه السياسية والعسكرية خلال هذه الفترة.

(1) ابن الأثير، المصدر السابق ص 5 ن ابن خلدون، المصدر السابق ص 431

(2) ابن عذاري، المصدر السابق ص 108، ابن الأثير، المصدر السابق ج 5 ص 270، ابن الخطيب، المصدر السابق ص 21.

(3) ابن الأثير، المصدر نفسه ص 103.

(4) ابن عذاري المصدر نفسه ص 135 - 136.

ونعتقد أن الخاتمة التي وضعها الفاطميون لإمارة الأغالبة كانت خطة محكمة تنطوي على الإعداد المسبق لها وقد تم اتخاذها من قبل قائدهم أبي عبد الله الملقب بالمحتسب حيث زحف بجيشيه بطريقه أرهبت أعدائه وأدخلت في قلوبهم الهلع والخوف، فلم تصمد جيوش الأغالبة أمام زحف الجيوش الفاطمية لثلاث مرات (1) حيث تقدم لإسقاط المدن واحتلالها مبتدئا في مدينة طنبة وبلزمة وباغاية وتيجسي وقصبة وبلاد قسطلية والأريس وكذلك مدن مجانة وتيفاش وسببيه وقموده وسكيانه وتبسه ثم القصرين (2) وأمام هذا التقدم الظافر للجيوش الفاطمية لم يقو زيادة الله علي الصمود وقرر الهرب إلى مصر فخرج متخفيا ليلا مع وجوه قومه وفتياناه وألف من عبيده الصقالبة وأفرغ ما في خزائن الإمارة من ذهب وجوهر ورحل من رقادته (3) تاركا إمارته أمام رحمة العساكر الفاطميين حيث أسدلت عليها الستار وسقطت سنة 296 هـ.

القيروان عاصمة بني الأغلب:

اختط عقبة بن نافع الفهري، مدينة القيروان وأسسها لأغراض عسكرية ودينية سنة 50 هـ/670 م في منطقة تونس وبني في وسطها مسجدها الجامع وقد بقيت هذه المدينة ردياً من الزمن مركزاً لجميع بلاد المغرب الإسلامي وعاصمة لأفريقية (4) ويقدم لنا أبي عبيد البكري، معلومات مفيدة عن القيروان تلقي ضوءاً عن أحوالها الاجتماعية والعمرانية وتساعدنا على القول أنها كانت نموذجاً للمدينة الإسلامية في خططها ومنشأتها ودروبها وفنادقها وحماماتها وأبوابها وأسوارها (5) لذلك فقد اتخذها الأغالبة حاضرة لهم وعاصمة لدولتهم سنة 184 هـ

(1) ابن الأثير، المصدر السابق ص 130.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق ص 141، ابن الخطيب ص 42، ابن خلدون ص 440.

(3) تذكر المصادر انه لما اتصل الخبر بفرقة إلى زيادة الله علم أن الأمر خطير وأن الإمارة قد انقرضت فاستعد للهروب وأخذ في رفع الأموال وأصبح الناس غداة تلك الليلة إلى قصور زيادة الله فانتهبوها وأخذوا الأموال منها (ابن عذاري، ص 147، ابن الخطيب ص 42، ابن خلدون ص 441.

(4) ابن الخطيب، أعمال الإعلام ق 3 ص 9 هامش رقم (1).

(5) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص 25.

فاكتسبت أهمية بين أمصار المغرب و قواعده ومدنه حتى وصفت بأنها " أم أمصار وقاعدة أقطار و كانت أعظم مدن المغرب قطراً و أكثرها بشراً " (1)

ويمكن القول أن التطور العمراني والاجتماعي التي شهدته القيروان في عهد الأغلبية إنما كان بسبب مركزها السياسي والديني وموقعها الجغرافي حيث تشخص علي الطرق التي تؤدي إلي الأندلس والمغربين الأوسط والاقصي من جهة و المشرق الإسلامي وموانئ الطرق التجارية الواقعة علي شاطئ أفريقية من جهة أخرى ويذهب الدكتور الحبيب الجحاني إلي القول أن خطط القيروان ومنشأتها ومسالكها تعطي فكرة واضحة عن أهمية التقدم المعماري فقد بلغ طول الشارع التجاري الرئيسي فيها المسمي " سباط القيروان " ميلين وثلاثاً أي بما يزيد عن الثلاثة كيلو مترات ونصف، ولا شك في أن هذا يدل علي سعة المدينة و ضخامتها وتعدد مرافقتها و تشابك المصالح فيها (2)

ويبدو أن الأغلبية قرروا أن يفتفوا اثر المدراريين والرستميين والأدارسة فسي تأسيس مدن تمثل وجودهم السياسي والاجتماعي مثل سجلماسة وتاهرت وفاس فشرعوا في إقامة مدينة العباسية جنوبي القيروان ليتخذوها مقراً ومركزاً لهم (3) وللأسف لا توجد لدينا معلومات كثيرة ومفصلة عن هذه المدينة سوي النتف التي يذكرها ابن عذاري التي جاء فيها أن إبراهيم بن الأغلب شرع سنة 185 هـ أي بعد سنه واحدة من قيام إمارته في القيروان في بناء مدينة " القصر القديم " الذي هو نفسه مدينة العباسية علي الأرجح، وربما كان هذا القصر في بدايته داراً غير رسمية للأمير إبراهيم بن الأغلب ثم صار بعد ذلك " دار أمراء بني الأغلب " حيث

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختزان الآفاق ص 110.

(2) المغرب الإسلامي ص 53.

(3) ربما كان الاغالب يتشبهون بحلفائهم العباسيين أو بالأمويين في الأندلس كانوا ينشئون لسدولهم عواصم ملكية غير العواصم التقليدية التي كانت تضم طبقات و فئات اجتماعية قد لا يتوفر فيها الإخلاص لهم كما هو الحال بالنسبة للعباسيين عندما تركوا الكوفة و اتخذوا لهم الهاشمية مقراً ثم كيف أنشأوا بغداد في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ثم سامراء في عهد الخليفة المعتصم بالله و كيف تركوا القسطنطينية و أنشأوا مدينة العسكر في مصر و كيف بني عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء و محمد ابن أبي عامر الزاهرة في الأندلس.

نقلوا إليه السلاح والغد سراً وأقاموا فيه وأسكنوا عبيدهم وأهل الثقة من خدَمِهِمْ⁽¹⁾ وأن إبراهيم بن الأغلب هو الذي أطلق عليه اسم "العباسية" ⁽²⁾ تعبيراً عن ولائه لحلفائه العباسيين ولكن المؤرخ النفوسي يشير إلى أن الأغلبة في عهد أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم أقاموا مدينة العباسية سنة 239 هـ في بلاد الجريد⁽³⁾ لتكون قاعدة عسكرية ينطلقون منها ضد الرستميّين و عاصمتهم تاهرت ولمنع الأخطار المحتملة منهم فضلاً عن منافستها للعاصمة الرستمية في تجارة مرور القوافل غير أن الرستميين أفلحوا في تدميرها وحرقها لاتقاء خطر الأغلبة في المنطقة⁽⁴⁾.

وأغلب الظن أن مدينة أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم هذا تمثل المحاولة الثانية لإقامة مدينة بالاسم نفسه بعد عباسية إبراهيم بن الأغلب، أو إن الأول أقام المدينة نفسها بعد تخريبها من قبل الرستميين وأقام الأمير إبراهيم بن محمد 261 - 289 هـ "المدينة رقادة سنة 263 واتخذها داراً ووطناً انتقل إليها من مدينة القصر القديم" العباسية "وبني بها قصوراً عجيبة وجامعاً وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق وغدت دار ملك لبني الأغلب" ⁽⁵⁾ ثم أصبحت هذه المدينة مركزاً مهماً من مراكز التجارة والعلم والحضارة بيد أن مدينة القيروان التي اعتمدها الأغلبة قاعدة لهم لم تبق محتفظة بدورها كمركز سياسي واقتصادي وحضاري فحسب بل أنها وصلت إلى أوج تطورها العمراني والاجتماعي والثقافي فهي "لم تزل دار ملك لبني الأغلب إلى أن هرب زيادة الله منها وهو آخر أمرائهم"⁽⁶⁾

(1) البيان المغرب ص 92 - 93.

(2) ابن الأثير، الكامل ج 5 ص 154 ح ابن خلدون، العبر ج 4 ص 419.

(3) الأزهري، الرياضية ج 2 ص 189، انظر د. محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي ص 143

(4) البلاذري، فتوح البلدان ص 227 ابن خلدون، المصدر السابق ص 200 - 201.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب ص 94.

(6) البكري، المغرب في ذكر أفريقيا و المغرب ص 27.

العلاقات السياسية

الأمراء الأغلبية والخلفاء العباسيين:

اتخذت علاقات بني الأغلب منذ قيام إماراتهم بإيعاز من الخليفة هارون الرشيد، مع الخلفاء العباسيين طابعا وديا اتسم باستمرار صلات التحالف، وكان تولي الأمراء الأغلبية لولاياتهم قد استلزم عهدا بالولاية "التقليد" من الخلافة في مقابل التبعية الاسمية لها، وقد جري الأمر بهذا الشكل منذ تولي إبراهيم بن الأغلب سنة 184 هـ وحرصت الخلافة أن تكون علاقاتها مع الأغلبية تسير علي نمط واحد في جميع العهود، ويبدو أن الأغلبية حرصوا من جانبهم كذلك علي ديمومتها بهذا الإطار ما استطاعوا إلي ذلك سبيلا، ولكن من المحتمل جدا أنهم كانوا يراعون الظروف السياسية التي كانت تمر فيها إماراتهم وهي بين حشد من الأعداء ففي حين تحتم عليهم الاستجابة للعباسيين وتلقي "أوامرهم وإجراءاتهم التي في كتبهم" ⁽¹⁾ فإنهم كانوا في أحيان أخرى يفضلون الابتعاد عن مناجزة أية قوة سياسية أو مناهضتها والإحجام عن إذكاء أو تشجيع ما يؤدي إلي الخصومة والعداء معها فهم في ذلك يؤثرون حياة الهدوء والموادعة ولكنهم في ظروف أخرى لم يعدموا إزاء الضغوط العباسية وسياسة التبعية، العمل علي مناهضة الكيانات القائمة وإرسالهم للعملاء والصنائع لغرض التطوح بها كما فعلوا مع الرستميين والأدارسة وبني مدرار وأمويي الأندلس.

ومن الواضح، أن الأغلبية بكونهم أداة الخلافة العباسية وعمالها في أفريقية ورمزا لنفوذها الوحيد في جميع بلاد المغرب الإسلامي، فإنهم يعجزون في كثير من الأحيان عن تقديم صورة بلون آخر لمواقفتهم وعلاقاتهم مع القوي والفئات والعناصر، وذلك لأن هذه القوي قد تأصل عداؤها للعباسيين ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تستبدل نظرتها تجاه الخلافة، فإذا شاء الأغلبية اتخاذ مواقف وعلاقات جديدة معها، فعليهم أن يعيدوا النظر في علاقاتهم مع العباسيين وأن يعلنوا شجبهم

⁽¹⁾ ابن خلدون، العبر ج 4 ص 422، ابن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 17.

لسياسة العداء التقليدي التي تنتهجها الخلافة و نبذ الأحقاد القديمة و تطبيق سياسة تقوم علي التقارب و المودعة و تحاشي التدخل و الشقاق.

ومن الجدير بالذكر أن كلا الطرفين العباسيين والأغلبية إذا كان حقا يغفلان العداء السياسي و إسقاطه من سجل العلاقات مع بعض العناصر في المغرب الإسلامي فإن هذه العناصر لا يسعها نسيان الخلافات المذهبية و العقائدية، مما يجعل أي مسعى من جانب الأغلبية للتوفيق معها غير مثمر لذلك ينكب الأغلبية علي تدبير المكائد و إحداث انشقاق بين هذه القوي و مناهضة حكامها (1)

وتفيض المصادر المتوفرة بمزيد من التفاصيل حول إمعان بعض أمراء الأغلبية في السير بهذا الطريق جرياً علي سنة الخلافة وتنفيذاً لمشينتها غير إنهم في ظروف معينة لا يسمعون فيها صوت الخلافة، ينتج توتر في العلاقات معها تضطرهم في نهاية الأمر، إما إلي الاستلام لمشينتها و إما إلي التهديد و الوعيد بالخروج عن طاعتها (2).

وغني عن البيان، أن قيام إمارة الأغلبية لا يمثل في الواقع إلا استغلالاً محدود الأفق، استقلال في السياسة الداخلية، أما تقرير سياستهم الخارجية وعلاقاتهم في المنطقة فتحكمه توجهات الخلافة و أوامرها كما أنهم لا يملكون حتى التصرف بممتلكات العباسيين و شؤون أفريقية مما يجعلهم عاجزين في بعض الأحيان حتى عن الدفاع عن أنفسهم فالعباسيون لم يقدروا أن ينجدوا حلفائهم الأغلبية ويحولوا دون سقوط إماراتهم بيد الفاطميين الأمر الذي حدا بزيادة الله إلي تأكيد تحالفه مع الخلافة وطلب النجدة منها فأرسل كتابه إلي الخليفة المكتفي بالله ومعه هدية (3)

(1) ابن عذاري، البيان ج 1 ص 107، 119، 122، 123، 131، 137؛ لسان الدين بن الخطيب، أعمال ص 26، ابن الأثير، الكامل ج 5 ص 253، 259، 300، ابن خلدون، العبر ج 4 ص 428، 431.

(2) ابن خلدون، المصدر نفسه ص 422، ابن الخطيب، المصدر نفسه ص 17 (انظر أيضا الفصل السادس من هذا الكتاب ص 13).

(3) وكانت الهدية تشتمل علي مائة مثقال من الذهب و كتب في كل مثقال هذين البيتين من الشعر

يا سائرا نحو الخليفة قل له أن قد كفاك الله أمرك كله

بزيادة الله بن عبد الله سيف الله من دون الخلفة سله

(ابن عذاري، المصدر السابق ج 2 ص 137)

لإشعاره باستمرار العلاقات الرسمية بين الطرفين و انه علي أهبة الاستعداد لصد الهجوم الفاطمي الذي كان يستهدف بنظر زيادة الله الوجود العباسي ونفوذه في المغرب و لكن لم تنفع محاولات الخليفة في حث أهل أفريقية علي نصره زيادة الله ومحاربة الفاطميين بكتاب أرسله وقرأه علي الناس هناك⁽¹⁾ فقد واصل الفاطميون تقدمهم في أملاك الأغالبة واحتلوا مدنهم، فلما اتصل الخبر بزيادة الله و هو في رقاده أيقن أن إسناد العباسيين المعنوي و الروحي و العسكري له لا يقوي علي الصمود أمام الفاطميين، فضلا عن أن أوضاع الخلافة هي ليست أحسن حالا مما آلت إليه إمارة الأغالبة من الضعف والوهن.

(1) وجاء فيه: ضرورة الوقوف صفا واحدا وراء الأمير المجاهد المطيع لأمر المؤمنين لقتال " عدو الله الخارجي الناجم بأطراف نواحي المغرب وأنصاره، أشياح الظلال وأوباش الجهال والباغين في الفتن وأن من كان مذهبه مذهب زيادة الله كانت وسيلته الوكيدة و قربته عند أمير المؤمنين و كان حقيقيا بالاجتباء له و الإحسان إليه و السكون إلي ناحيته وأمير المؤمنين مرتضي لأمره حامد لطريقته واثق من صحته معتمد عليه في الصقع الذي هو به " د. موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ص 289 نقلا عن مخطوطة النعمان بن محمد التميمي افتتاح الدعوة وابتداء الدولة مكتبة جامعة القاهرة رقم 24055 (ابن عذاري، المصدر السابق ص 140.

obeikandi.com

الفصل الثامن

الدولة الفاطمية في بلاد المغرب

1- تمهيد

الفاطميون

2- المهدية و استكمال قيام الدولة الفاطمية

- علاقات الدولة الفاطمية السياسية

" في نطاق المغرب الإسلامي "

أ- الفاطميون ودولة بني العباس

ب- جزيرة صقلية بين المواطنين والعباسيين

ج- تطلع الفاطميين نحو مصر

د- الفاطميون وأمويو الأندلس

obeikandi.com

الفصل الثامن

الدولة الفاطمية في بلاد المغرب

(197 - 365 هـ / 909 - 975 م)

تمهيد:

الفاطميون:

عرفوا بالإسماعيلية⁽¹⁾ أو السبعية أو التعليمية أو الباطنية⁽²⁾ ولكنهم حرصوا اشد الحرص علي أن يعرفوا بالعلويين أو الفاطميين⁽³⁾ بيد أن اسم العبيديين هو الشائع في الكتابات التاريخية و ذلك نسبة إلي عبد الله المهدي بن سعيد بن محمد الحبيب الذي ولد سنة 259 هـ في مدينة الكوفة و قيل في سلمية⁽⁴⁾ و هو آخر الأئمة المستورين للإسماعيلية*.

يبدأ إهتمام الفاطميين ببلاد المغرب الإسلامي، بإرسال داعين من مقرهم في مدينة سلمية من بلاد الشام الواقعة بين حمص و حماه، إلي هناك، و هما عبد الله

(1) نسبة إلي إسماعيل بن جعفر الصادق، سادس الأئمة الاثني عشرية.

(2) الباطنية، من يعتقدون أن لكل نص باطنا يدركه الخاصة من الناس بطريق التأويل، و قد لقبوا بالسبعية لقولهم أن ادوار الإمامة سبعة و الانتهاء إلي السابع هو آخر الدور و كذلك لأن تدبير العالم السفلي منوط بالكواكب السبعة و أعلاها زحل، أما التعليمية فإن مذهبهم دعوة الخلق إلي التعليم من الإمام المعصوم و استخدام العقل (انظر: أبو حامد الغزالي فضائح الباطنية ص 11 - 7، (د. موسى لقبال: دور كتامة ص 203 هامش 41)

(3) لأن أولاد عبيد الله المهدي هم أولاد فاطمة بنت النبي (ص) منهم علويين و لكن نسب هذه الأسرة كان و لا يزال موضوعا كثرت فيه آراء الكتاب و المؤرخين الاقدمين و المحدثين (انظر: د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 57 - 79)

(4) ابن حنكان، وفيات الأعيان ج 1 ص 272.

* يرون أن الأئمة أو يمكن أن يكون ظاهرين جميعا بل ينبغي أن يستتر قسم منهم بتأثير الظروف و يلقب الأئمة المستورين بلقب " المستورون في ذات الله " وقد ترتب علي ذلك قيام عدد من الأئمة المستورين بين محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وبين ظهور الفاطميين (انظر: الشهرستاني، الملل و النحل ج 2 ص 5، ابن أبيك الداوداري، الدرر المضية في أخبار الدولة الفاطمية ج 6 ص 4)

بن علي بن أحمد المعروف بالحلواني وأبو سعيد الحسن بن القاسم، حيث زودوا بالوصايا في استمالة القبائل المغربية لدعوتهم و مراعاة الحذر والتستر. وقد استطاع هذان الداعيان أن يكسبان أنصار في مدن تالة وممراجنه والأربس ونقطة ومسكيانه ومجانه وسببية وباغاية، مما أوجد للحركة الفاطمية ركائز سياسية في نضالها في التاريخ اللاحق في هذه المنطقة ومعروف أن أكثر حركات المعارضة العلوية بوجه الأمويين أو العباسيين⁽¹⁾، كان نصيبها الإخفاق ولكن نجاح الادارسة الذين يمثلون العلويين من الفرع الحسيني شكل إرهاباً بنجاح فرع الحسينيين الفاطميين في إقامة أكبر دولة علوية في بلاد المغرب الإسلامي هي الدولة الفاطمية⁽²⁾ ولكن قبل أن يتوج نضال الفاطميين بقيام دولتهم استطاعت معارضة العباسيين أن تزرع بذور الحركة الانفصالية التي أينعت بظهور مجموعة من إمارات المدن و المراكز في المغربين الأوسط والأقصى، التي لم يتح لها التوسع، وبقيت داخل حدودها، ويلاحظ أن أغلبها كان علوي الاتجاه⁽³⁾، ومن المعتقد أنها كانت إرهاباً مكملاً لما سبقه من أجل النهوض الفاطمي العلوي.

(1) المسعودي، مروج الذهب ج 2 ص 199 ابن الطقطقي الفخري في الآداب السلطانية ص 201

(2) د. موسى لقبال، المصدر السابق ص 198 (أي أن الادارسة يرجع نسبهم إلي الحسن بن علي بن أبي طالب، والفاطميون إلي الحسين بن علي بن أبي طالب.

(3) ومن هذه الإمارات: إمارة هاز ، قرب المسيلة يسيطر عليها الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسن بن علي ، و منطقة متيجة (فررونة) وهي مركز لمحمد بن جعفر الحسني وحوض الشلف الذي يشقه نهر الشلف أكبر انهار الجزائر حيث توجد فيه مدن ومراكز عدة ومدينة سوق إبراهيم التي كانت يسيطر عليها فرع علوي من بني الحسن أولهم إبراهيم محمد بن سليمان بن عبد الله و إمارة ثمطلاس في مضارب قبيلة مطماطة وإمارة ايزرج وحاكمها إبراهيم بن محمد المعتزلي والمدينة الحسنه وتليها مدينة تلمسان وهي دار مملكة زناتة " ومدينة العلويين وكانت مركزا لمحمد بن سليمان ومدينة فالوس وإمارة نكور لبني سعيد بن صالح و ارشقول لبني محمد بن سليمان و جزيرة اشتول وهي مركز حصين لجأ عليه العلويون و منهم الحسن بن عيسى بن أبي اليعيش و مدينة ترناتة قرب الساحل تلمسان و مدينة حمزة (البويرة) نسبت إلي حمزة بن الحسن بن سليمان و مدينة تنس بقرب البحر مركز لبني محمد بن محمد بن سليمان ثم اختص بها إبراهيم بن محمد اليعقوبي الذي كتب عنها (انظر البكري ، المغرب ص 63 - 88 ، د . موسى لقبال، المصدر نفسه ص 209 - 213).

ويبدو أن انتهاء الداعيين عبدالله بن علي بن أحمد الحلواني وأبي سفيان بن الحسن بن قاسم اللذين أرسلهما الفاطميون بوفاتهما أدى إلى اختيار ما عرفته المصادر باسم " الداعي " وهو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الذي يكنى بأبي عبدالله وكانت له ألقاب عدة منها، الصنعاني والمحتسب والمعلم والصوفي والاحوازي⁽¹⁾ لكي يحل بأرض المغرب و يقود الدعوة الفاطمية بقوة السلاح، يذكر أن ابن عذاري أن أبا عبد الله التقي بعشرة من زعماء قبيلة كتامة في الحجاز و استمالتهم لدعوته واتفق معهم علي الرحيل إلى بلاد المغرب ليعبئ كتامة و بقية القبائل المغربية الاخرى مثل عحيسة و زواوة ويكون قوة تستطيع أن تثبت أقدامها في هذه البلاد النائية من نفوذ الخلافة العباسية⁽²⁾ .

وتبدأ بحلول أبي عبد الله لبلاد، مرحلة مهمة من مراحل اتصالاته و تفصيله للأوضاع والظروف في المنطقة حيث استطاع إن يوحد صفوف قبيلة كتامة للنهوض بأعباء الدعوة الفاطمية من الناحية العسكرية و كان يقول لهم: " إننا لا ادعوكم لنفسي وإنما ادعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت " ويبدو أن أول قوة يجابها أبو عبد الله و يعلن تحديه لها هم الأغالبة و قد وجاء ما يشير إليه احد رجاله ليستطلع جلية الأمر لهذا الداعي بعد إن ظهر في مدينة" ايكجان " ولما عاد رسول الأمر كانت ردود أبي عبد الله علي رسالته تبعث علي الخوف وعدم الاطمئنان⁽³⁾ حتى انه عُرف " أنه صاحب قطع دعوته " ⁽⁴⁾ وعلي الرغم من أن الأمراء الذين خلفوا إبراهيم بن أحمد قاوموا الحركة الفاطمية بجهود موفقة في

⁽¹⁾ يذكر المؤرخون انه لما اتصل بقائد العودة الفاطمية عبيد الله المهدي ووجد فيه الذكاء و النشاط ضمه إلى سلك دعائه ثم أرسله إلى مركز تكوين الدعاة الماهرين في بلاد اليمن حيث يوجد كبير دعائهما منصور اليمني الذي رحب به ووضح " أن ارضي كتامة موطأة ممهدة لك " ثم أرسله إلى ارض كتامة (النعمان ، افتتاح الدعوة ، الورقة 27 ؛ النويري ، نهاية الأرب ج 26 الورقة 25) .

⁽²⁾ د. مرسي لقبال، المصدر السابق 128.

⁽³⁾ النعمان، افتتاح الدعوة الورقة 79-80.

⁽⁴⁾ ابن الخطيب، المصدر السابق ص 38-39.

مدن تازروت وميلة وايجان غير أن الكارثة حلت بأسرة الأغالبة في مدينة الأربس/ حيث فر آخر أمرائهم زيادة الله إلى مصر ولكن كان من الممكن أن تشل الحركة الفاطمية ويبدد رجالها علي يد الأغالبة، لو لم يرتكب زيادة الله هذا بدافع الخوف علي نفسه و مركزه جرماً كبيراً بقتله لأخيه أبي عبد الله محمد الملقب بالأحوال الذي أبانت الأحداث عن أهميته لاستمرار نظام الأغالبة وإمارتهم وقد وضح أن اختفائه كان بداية النهاية لأسرة الأغالبة (1)

هذه هي الخطوة الأولى التي خطاها أبو عبد الله لغرض الدعوة الفاطمية في ربوع المغرب إما الخطوة التالية التي بدأ ينفذ خيوطها فهي التحركات العسكرية لإسقاط المدن والمناطق ومن ثم الإجهاز علي الإمارات و الدول الاخرى ففي 289 هـ بدأت الأعمال العسكرية المنظمة فاتجهت صوب مدن الأغالبة لاجتاحتها و كانت موقعة كينونة التي لصالح الجيوش الفاطمية، قد وضعت نهاية لمقاومة جدية من الأغالبة و سهلت تقدم الفاطميين مدن سطيف وبلزمة وباغاية وقرطاجنة و تبسه والقصرين في إقليم قمودة ثم الاستيلاء علي قسطنطينة وتيجي وقنصة ومن ثم دخلت جيوشهم مدينة الأربس مما أتاح لهم احتلال مدينة رقاد حيث تمت تصفية إمارة الأغالبة بالزحف النهائي علي القيروان فتراعي لأبي عبد الله انه لم يتبق أمامه سوى النهايات لاستحكام حلقات سيطرته التامة علي أهم بلد من بلدان المغرب فكتب إلي سيده عبيد الله المهدي يحثه علي القدوم إلي هذه البلاد فحل هذا الأخير متخفياً إلي مدينة سلجماسة عاصمة بني مدرار حيث أكرمه أميرها اليسع بن مدرار (2) ولعل اختياره للإقامة في سلجماسة كان بسبب إنها إمارة مستقلة سياسياً ومذهبياً عن العباسيين وحلفائهم الأغالبة غير أن وصول الجيوش الفاطمية إلي مشارف سلجماسة لإرغام أميرها علي الخضوع جعل هذا الأمير يأمر بالتضييق علي عبيد الله المهدي ووضعه في سجن انفرادي " سجن المطبق "

(1) د. لقبال ، المصدر السابق ص 263 .

(2) ابن الأثير، الكامل ج 8 ص 14، ابن خلدون، العبر ج 4 ص 70.

وتعرض أتباعه ومرافقيه للتعذيب مما ترتب عليه أحكام الفاطميين السيطرة على سلجماسة وهروب الأمير ورجاله ليلاً في مجاهل الصحراء وعندئذ تم تحرير عبيد الله المهدي وأصبحت سلجماسة في إطار النفوذ الفاطمي.

وتوجه رأس الدعاة الفاطميين عبيد الله المهدي إلى رقادة عن طريق ايكجان⁽¹⁾ وبذلك يمكن القول أن قيام الدولة الفاطمية يبدأ بدخول هذا الأخير مدينة رقادة سنة 296 هـ كما يمثل ذلك بداية لظهوره بعد استتاره في قيادة الحركة السياسية الفاطمية علنياً بمساعدة قائد جيوشه وداعيته أبي عبد الله والظاهر أن الفاطميين كانوا يعملون على اتخاذ رقادة قاعدة لدولتهم ومنطلقاً لجيوشهم بعد سقوط إمارة الأغلبية وذلك للوثوب على القبائل المناوئة لهم وتصفية القوى السياسية التي مسا تزال تتشبث بالبقاء في المنطقة وقد اتخذ عبيد الله المهدي جملة من الإجراءات " بعد نزوله في قصر الصحن ومقابلته لوفود الفقهاء ووجوه أهل القيروان الذين دعوا له وهنئوه وأظهروا له السرور بأيامه وسألوه تجديد الأمان لهم "⁽²⁾ ولعل من أهم الإجراءات التي اتخذها لقب " المهدي أمير المؤمنين " واصطناع وجوه جديدة من رجاله بإسناد ومناصب مهمة لهم في الدولة مثل الإشراف على بيت المال و قضاء رقادة و ديوان الكتابة وديوان الخراج و الحجابة والتعيين على منطقة قابس وإثبات الموالي وأبناء العبيد في ديوان العطاء وضرب السكة⁽³⁾.

غير أن قرار عبيد الله المهدي بتصفية قائد جيوشه ومؤسس دولته أبي عبد الله يمثل مرحلة جديدة للدولة الفاطمية الفتية حيث عمد إلى تجريده من سلطاته وإبعاد رجاله عنه ثم القضاء عليهم تدريجياً والإجهاز عليه واغتياله بخطة أعداها مع

(1) النعمان ، المصدر السابق الورقة 179.

(2) ابن عذاري ، المصدر السابق 158.

(3) م . ن . ص 158 - 160.

رجاله وحاشيته والمقربين من أنصار أبي عبد الله (1) ويبدو أن من بين الأسباب التي دفعت عبد الله المهدي للتخلص من أقدر رجاله وأخلصهم له ما يزعم باتفاق أبي عبد الله وأخيه أحمد أبي العباس علي تحريض قبيلة كتامة وقبائل المغرب ضده والظعن في خلافته سرا وهو ما أشار إليه ابن خلدون حيث " دعا الناس إلي خلعه والقول أنه ليس الإمام المعصوم، فقال فيه المهدي أنه مفسد للهية " (2)

وقد أثار مقتل أبي عبد الله وأخيه (3) مشكلات بوجه الدولة الفاطمية، ربما هي في غني عنها في هذه الفترة الحرجة التي كانت تجتازها، حيث أظهرت بعض

(1) ذكر بن عذاري: " أن عبيد الله المهدي أمر عروبة بن يوسف الملوسي وجبر بن نحاسب الملي، أن يكمن خلف قصر الصحن، فإذا مر أبو عبد الله وأخوه أبو العباس طعنوهما بالرمح حتى يموتا فكمننا هناك مع جماعة من كتامة وبعث عبيد الله المهدي في أبي عبد الله وأبي العباس ليحضرا طعامه علي جاري عادتتهما معه، فلما مرا بالموضع الذي فيه الكمين فخرج عروبة عليهما فصاح أبو عبد الله بعروبة " لا تفعل يا ولدي " فقال له عروبة " أمرني بقتلك من أمرت الناس بطاعته و انخلعت له من الملك بعد توطئته " ثم طعنه بيد طعنه واحدة خر منها صريعا ووقعت في أبي العباس تسع عشرة طعنه و مكثا صريعين علي صف الحفير المعروف بالبحر إلي ما بعد الظهر ثم أمر عبيد الله بدفنهما فدفنا في الجنان و قال عبيد الله : رحمك الله أبا عبد الله و جازاك في الآخرة بقديم سعيك و لا رحمك الله أبا العباس فإنك صددته عن السبيل و أوردته موارد الهلاك " . (البيان المغرب ج 1 ص 164)

(2) جاء أن أبا عبد الله حدث رؤساء كتامة علي امتحانه، و ذكروا أن شيخا منهم جاء إليه و قال له " جننا بأية علي أمرك فقد شككنا فيك " فقتله المهدي علي الفور (العبر ج 4 ص 76) .

(3) وكتب عبيد الله المهدي إلي أنصاره في المشرق " أما بعد فقد علمتم محل أبي عبد الله و أبي العباس من الإسلام فاستنزلهما الشيطان فظهرتهما بالسيف و السلام " ابن عذاري المصدر السابق ص 165) و يروي هذا المؤرخ ما يدل علي استمالة المقربين من أبي عبد الله لاغتياله قائلا: "إن أبا عبد الله نام يوما بحضرة أصحابه و عنده جماعة من دعاة كتامة فتحرك في نومه فانكشفت سؤته فنظر بعضهم إلي بعض و لم يقدموا أن يستروه فمد عروبة بن يوسف يده إلي الملحفة التي كانت عليه فستره بها و اتبه أبو عبد الله فقال: " من سترني إذا انكشفت ؟ فقالوا له عروبة فقال: " هو و الله قاتلي " فجعل عروبة يبكي بين يديه و يقول له: " يا سيدي: مر بقتلي فقال له: " لا سبيل إلي ذلك.. لكنك والله قاتلي " فكان الأمر كما ذكر.

بطون كتامة الخلاف علي عبيد الله المهدي ⁽¹⁾ وقيام مجموعة من كبراء أهل القيروان بمعارضة سياسته وديروا له مؤامرة لاغتياله ⁽²⁾ وثورة أهل طرابلس علي عامل الفاطميين ⁽³⁾.

وعلي الرغم من أن الفاطميين استطاعوا إخماد الثورات والفتن هذه ولكن كان عليهم أن يواجهوا احتمالات المستقبل المشحون بالأخطار و نزر الشر و مصاعب الحرب الحقيقية سواء في ميادين القتال ضد الإمارات و القبائل المعارضة أو في الحواضر و المدن المغربية الكبرى حيث كانت تضم فئات و عناصر معادية و مخالفة لهم مذهبياً، ويذهب الدكتور موسي لقبال إلي أن التحول الذي شهدته الحركة الفاطمية من دعاية سرية تمتلك أنصار متطوعين و حشد من الدعاة التاريخية إلي نظام دولة تقليدية مستقرة لها رئيس وموظفون رسميون وتقاليده ورسوم جديدة، أن هذا التحول فرض وضعاً جديداً لأنصار الدولة من القبائل المغربية و بخاصة قبيلة كتامة، وأدي إلي حدوث انشقاق خطير بين بناء الدولة وأخص رجالها وإلي تصدع في صلب عقيدتهم ⁽⁴⁾.

(1) ابن عذارى، المصدر نفسه ص 165 - 66.

(2) ومن هؤلاء المتآمرين: محمد بن أبي سعيد الميلي صاحب السوق، و عبد الله بن محمد المعروف بابن القديم و محمد بن أبي رجال الباغالي و أبي الوهب عمرو بن زرارة العبدي (م. ن ص 167)
(3) يذكر ابن عذارى، إن أهل طرابلس أغلقوا أبواب المدينة و قتلوا من كان داخلها من كتامة و قدموا علي أنفسهم محمد بن اسحق المعروف بابن القرلين، فأخرج إليهم عبيد الله المهدي جيشاً و حاربهم شهوراً، و ذكر أيضاً خروج أبي القاسم بن عبيد الله لمحاربة طرابلس فوجه إليها خمسة عشر ركبا حربية فلما وصلت إلي طرابلس اخرجوا إليها مراكبهم فحرقوا الأسطول و قتلوا من فيه و سار أبو القاسم في البر نحو طرابلس فأوقع بأهل هواره ثم نزل طرابلس فحاربها و حاصرها حتى أطلقوا الميته فرغبوا إلي أبي القاسم في الأمانة فأمّنهم إلا ثلاثة أنفس اشترط التحكم فيهم و هم : محمد بن إسحاق القرشي و محمد بن نصر و رجل يعرف بالحووحة فدخل طرابلس و تحكم فيها سنة 300 هـ) م . ن ص 167 - 169.

(4) دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية ص 332.

المهدية و استكمال قيام الدولة الفاطمية:

بعد الإطاحة بأبي عبد الله شرع عبيد الله المهدي بارتداد موضع لتأسيس عاصمة له لابد من القيروان، ليتخذها " عدة للشدة " (1) ولكي " تعتصم بها الفواطم ساعة من نهار " (2) فكان عبيد الله المهدي قد بدأ النظر فيها واستكمل فيها سنة 300 هـ و استكمل سورها سنة 305 هـ و تم الانتقال إليها سنة 308 هـ (3) عندئذ قال : " أمنت اليوم علي الفواطم " (4) ويوضح ابن عذارى " أنه في سنة 300 هـ خرج عبيد الله من مدينة رقادة مارا بتونس وقرطاجة ونواحي البحر فوق اختياره علي جزيرة جمة فابتدأ بنيانها واتخذها دار مملكته وهي التي تسمى المهدية " (5).

ومهما تكن البواعث لبناء الفاطميين مدينة المهدية وجبهة إلي حد ما يبقي ما أشار إليه البكري يستأثر بالاهتمام حول النوايا التي كان يضمها أبو عبد الله و أنصاره من قبيلة كتامة للإيقاع بعبيد الله المهدي و خلعه (6) علي حذرهم هذا الأخير، يدل عليه ثورة الكتاميين في مدينة القيروان (7) أما مدينة رقادة التي ولدت فيها الدولة الفاطمية و سلطتها و مؤسساتها فإنها علي ما يبدو لا تصلح لتطلعات المستقبل الذي ربما يحمل بين ثناياه الحاجة إلي قاعدة عسكرية يمكن الاعتماد عليها في التوسع صوب مصر أو الأندلس حيث: " استكثر بها من العدة والخزين " (8) أو الاحتماء بها من الغزاة و الطامعين و الطامعين و جعلها موقع مواجهات

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق ص 50.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق ص 79.

(3) البكري، المصدر السابق ص 25-30.

(4) ابن خلدون، المصدر نفسه ص 80.

(5) البيان المغرب ص 169.

(6) م. ن. ص 30.

(7) وكذلك ما أشار إليه عذارى عن ثورة الكتاميين في القيروان حيث قدموا علي أنفسهم حدثا اسمه كادوا بن معارك ويعرف بالمالطي وزعموا أنه المهدي المنتظر (م. ن. ص 166).

(8) ابن الخطيب، المصدر السابق ص 50.

قوية و صامدة أمامهم أو لجعلها مركز انطلاق لإخماد أعداؤه أو أنصاره في
الأمس من الكتاميين.

حرص الفاطميون بجعل عاصمتهم الجديدة المهدية ميناءً بحرياً وعسكرياً ومن
ثم تجارياً لذلك اختاروا موضعها في جزيرة متصلة بالبر " كصورة كف اتصلت
بزند ⁽¹⁾ والبحر قد أحاط بها من ثلاث جهات ويمكن الدخول إليها من الجانب
الغربي، ⁽²⁾ وكان لها "بابان من الحديد لا خشب فيهما وقد نُقش عليهما تخطيطات
لرسوم الحيوانات" ⁽³⁾ حيث تغلق هاتان البوابتان فيحكم تحصينها و يصعب الدخول
إليها أماناً وعنوة.

أما مرسى السفن في المدينة فهو منقور في صخر صلد يسع ثلاثين مركباً من
المراكب القادمة من الإسكندرية أو الشام أو صقلية أو الأندلس وقد حصن هذا
المرسى بسلسلة من الحديد لئلا تمنع أساطيل البيزنطيين من الاقتراب إليها وجعل في
المدخل الوحيد علي المدينة ستة عشر برجاً للرصد والمراقبة، كما أقيمت دار
صناعة السفن علي غرار مدينة تونس وهي رصيف ترسوا فيه السفن يسع أكثر
من مائتي مركب، و فيها قبوان كبيران طويلان يغطي المراكب الراسية أو الجائئة
بعد تصنيعها و آلاتها فيقيها من الشمس و المطر ⁽⁴⁾.

ويذكر ابن عذاري الاستحكامات الحربية في المهدية بقوله: " و بها دار صنعة
الإنشاء العجيبة، و يخرج الجفن معموراً من خلف السور فلا يعلم به حتى يفاجأ
القاصد فيحيط به فلا يقربها العدو لأجل ذلك " ⁽⁵⁾

إن تطلع الفاطميين إلي مصر والاستحواذ عليها بات يشغلهم فعدوا للأمر عدته
باتخاذ عاصمتهم في شبه جزيرة قريباً من تونس ووسوسة وصفاقص وقفصه،
وهي مراكز بحرية مهمة ترتبط بخطوط التجارة البحرية مع الإسكندرية، لكي يتاح

(1) ابن خلدون، المصدر السابق ص 79.

(2) البكري، المصدر السابق ص 25.

(3) م. ن ص 29.

(4) البكري، المصدر السابق ص 30.

(5) ابن عذاري، المصدر السابق ص 207.

لهم تحقيق أهدافهم التوسعية في مصر علي المدى البعيد من جهة والاعتماد علي أسطولهم في حماية عاصمتهم وتموينها عن طريق البحر إبان الأزمات من جهة أخرى فضلا عما يترتب عليه من مكاسب سياسية و عسكرية في بلاد المغرب الإسلامي عامة.

ويخيل إلينا، أنه باكتمال بناء المهديّة حسبما خطط لها عبيد الله المهدي بهذا الإطار برزت الدولة الفاطمية، دولة مقتدرة استطاعت بأمد ليس بالقصير أن تنفذ أهدافها البعيدة التي رسمتها أو في التوسع أو إخضاع الإمارات والدول في المنطقة وفيما يتعلق بالأندلس التي كان للفاطميّين فيها مطامع توسعية فلم يكن من المستطاع تحقيقها حيث برز لهم حكام الأندلس وهم يذبّون عن بلادهم تدخلات الفاطميّين وتحرشاتهم في شئونهم الداخلية ومنعواهم من التقرب إلي سواحلهم بل درج هؤلاء الحكام علي الاجترار علي مناطق الفاطميّين في بلاد المغرب وأخذوا يناجزونهم في عقر دارهم مما أفنّع عبيد الله المهدي باستحالة إسقاط الحكم الأموي هناك كما يتعذر القيام بالعمليات العسكرية ضدهم فألجأهم إلي تكرار محاولاتهم إلي مصر للمرة الثالثة حيث تكلل بالنجاح في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله سنة 358 هـ (1)

(1) م. ن. ص 228.

علاقات الدولة الفاطمية السياسية

(في نطاق المغرب الإسلامي)

الفاطيون و دولة بني العباسي:

يمثل قيام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي وسيطرتها علي مصر فيما بعد منعطفا في التاريخ الإسلامي حيث شيدت حكما يقوم نظام الخلافة بغية تحدي القوي والعناصر السياسية و تقليص نفوذها ومن ثم الإجهاز عليها أن لم يكن في جميع أنحاء العالم الإسلامي ففي بلاد المغرب في الأقل.

وكان العباسيون ينظرون إلي محاولات الفاطميين بزرع نفوذهم في بلاد المغرب وإقامة دولتهم هناك علي أنها تحد سافر لنفوذ الدولة العباسية الروحي والسياسي يجب بالأنظمة التي تدين لهم بالتبعية وفي مقدمتها إمارة الأغالبة وحث رعاياهم علي الوقوف صفا واحدا وراء هؤلاء المطيعين لأمر المؤمنين لقتال: "عدو الله الخارجي النجم بأطراف نواحي المغرب وأنصاره من كتامة أشياح الضلال و أوباش الجهال والباغين في الفتن لتطرفهم وقسوتهم علي غيرهم من المسلمين و إشاعتهم الفرقة والانفصال في المنطقة" (1)

لقد شعر العباسيون بخطر الفاطميين الحقيقي ليس بالاستحواذ علي بلاد المغرب فحسب و إنما علي جميع البلاد الإسلامية فراحوا يعملون علي تحشيد جميع المؤمنين بقدسية الخلافة العباسية و رسومها الدينية والسياسية و العسكرية و لكنهم في حقيقة الأمر كانوا بذلك يعنون مشاعر فاترة تجاه الخلافة التي ساءت ظروفها في المشرق بسبب نشاط الحركات المضادة و تسلط العنصر التركي و هيمنته علي مقدراتها و حتى أننا لم نسمع عن اهتمام الخلافة العباسية بالتصدي للخطر الفاطمي بعدما أصيب الأغالبة بالهزيمة و السقوط.

(1) انظر موضوع " الأغالبة ودولة بني العباس " من هذا الكتاب ص هامش رقم .

جزيرة صقلية بين الفاطميين و العباسيين:

كان من المفروض أن تؤول صقلية إلى النفوذ الفاطمي بعد سقوط الأغالبة لكننا نقرأ أن تحركا عباسيا ضد إجراءات الفاطميين بإرسال واليهم الحسن بن أحمد بن علي بن أبي المنهال، وهو تحريك عملاتهم في الجزيرة وتحريضهم ضد السلطة الجديدة التي لم تواجه بأدنى مقاومة في بداية الأمر، مما اضطر الفاطميين إلى تعيين وال آخر هو بن عمر البلوي سنة 299 هـ الذي نشط في الوقوف ضد حركة المقاومة التي أثمرت بانتفاضة ضد الفاطميين و لم تمض إلا فترة قصيرة حتى ظهرت بوادر و اتجاهات للثورة التي كان يغذيها العباسيون بموافقة الخليفة المقتدر بالله و بقايا أسرة بني الأغلب في الجزيرة.

حيث آلت بالإطاحة بالوالي الفاطمي وأعيدت الخطبة و الدعوة للعباسيين ويذكر بن عذاري إن أهل صقلية قدموا علي أنفسهم أحمد بن زيادة الله بن قرهب سنة 300 هـ وكتب الخليفة المقتدر بالله ببغداد بأن يكون 11 داعيا لهم وقائما بأمر هلا بجزيرة صقلية فأنفذ المقتدر ذلك لهم وبعش لهم بالوية سود وخلع سود وطوق ذهب⁽¹⁾ مما جعله يستمر في الثورة ضد الفاطميين.

وظلت المناوشات بين الفاطميين و العباسيين من اجل السيادة في جزيرة صقلية حتى سنة 336 هـ، إذا ولي الفاطميون بعد فرض سيطرتهم التامة عليها وإبعاد أي أثر للنفوذ العباسي عنها، الوالي الحسن بن علي بن أبي الحسن الكلبي الذي أصبح رأس أسرة عربية جديدة في صقلية هي أسرة الكلبيين التي استمرت حتى الاجتياح النورماني للجزيرة في نهاية القرن الخامس الهجري.

ويبدو لنا، أن التنافس بين القوي والمجموعات الإسلامية الكبرى وبخاصة بين الدولتين الفاطمية والعباسية حول توسيع مناطق النفوذ والسيطرة المباشرة وتغيب المصالح و طغيان الطموح كان علي حساب المجموعات الصغيرة في صقلية مما جعلها فريسة للفوضى وفقدان الأمن الأمر الذي أودي بضياها

(1) البيان المغرب ج 1 ص 168.

وإنفصالها نهائياً عن البلاد الإسلامية ومن المبالغة القول أن سياسة الفاطميين وحدها هي المسؤولة عن ذلك، بل يمكن تحميل العباسيين أيضاً قسطاً كبيراً من عدم الشعور بالمسئولية عن تفريق القوي الإسلامية وبعثرتها والحفاظ على البلدان التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي وخاصة جزيرة صقلية حيث كانت مركزاً للحضارة والعلم ومصدراً لإشعاعات الثقافة الإسلامية، وقد احتلت شهرة واسعة في جميع أنحاء العالم الإسلامي طوال الحكم العربي فيها وبعده بقرون عدة فأنجبت العديد من العلماء والفقهاء والشعراء ذاع صيتهم وانتشر أثرهم.

تطلع الفاطميون نحو مصر:

أن سعى الفاطميين لبسط نفوذهم على مصر ومناطق بلاد الشام والحجاز لا يشكل لديهم تكتيكاً سياسياً وعسكرياً أنياً فحسب بل هدفاً من أهدافهم الاستراتيجية في تعبيد طريق المشرق أمامهم وذلك على الرغم من أن الخلافة العباسية وقتها كانت تمتلك شيئاً من القوة والنفوذ، حيث كانت لهل السيطرة على ولايتي الشام والحجاز.

لقد توضح التخطيط الفاطمي بالتقدم نحو طرابلس وبرقة ومشاطة ولاية مصر العباسيين لتمهيد الطريق نحو مصر، لذلك عول الفاطميون على قاعدتي طرابلس وبرقة اللتان كان لهما أهمية كبيرة في الوصول إلى الإسكندرية لأنهما من المراكز الأمامية القريبة من مصر كما وصفتا بأنهما "باب مصر" وينبغي على الفاطميين ولوجها ولكن قبل ذلك أرسل الخليفة القائم بأمر الله الفاطمي كتاباً لاستمالة مجد بن طفج الأخشيدي الذي كان يحكم مصر ليهوّن عليه مسألة الانفصال عن العباسيين⁽¹⁾ وكاد هذا الأخير أن يستجيب لمضمونه لولا تأثير مستشاريه وأعوانه الذين عدلوه عن الخطبة للفاطميين مما حدا بالخليفة المعز لدين الله الفاطمي تبني سياسة أباءه وأجداده فيما يتعلق بالتعرض إلى البلاد المصرية ونتيجة لذلك لم يشأ الفاطميون إلا أن يرغموا العباسيين على التراجع حيث أسقط بأيديهم إذ رأوا تقدم

(1) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلا المغرب ج 1 ص 175.

الجيوش الفاطمية نحو مصر يقودها أبو الحسن جوهر بن عبد الله الصقلي⁽¹⁾ حيث دخلت مدينة الإسكندرية دون مقاومة ثم تقدمت نحو مدينة القسطنطينية وفرضت سيطرتها على المدينة بالرغم من المقاومة التي أبدتها الإخشيديون⁽²⁾ وقطع الفاطميون بذلك الخطبة للخليفة العباسي المطيع لله والدعوة للمعز لدين الله الفاطمي ولآبائه في المسجد العتيق وإزالة شعار العباسيين، واستهلت دار الضرب نشاطها بسك دنانير جيدة العيار⁽³⁾ نقش عليها تاريخ الفتح واسم المعز لدين الله وشعار الفاطميين⁽⁴⁾ وزاد الفاطميون باتخاذ مصر مقرا لدولتهم بتأسيس مدينة القاهرة سنة 360 هـ وجعلوها

عاصمة لهم⁽⁵⁾، أما القيروان أو المهدية فلم تكونا لتصلحا حاضرتين لدولة الفاطميين الكبرى لما يستدعيه اتخاذ الحاضرة في موضع يسهل معه التواصل مع

(1) وهو من مسلمي صقلية وقد عرف بالرومي ولكن الغالب الصقلي لان صقلية أصبحت بلاد إسلامية ينسب إليها (انظر ترجمته في أبي الفدا المختصر في أخبار البشر ج2 ص115، ياقوت، معجم البلدان ج5 ص372، وما كتبه عن جوهر الصقلي الدكتور موسى ليقال، دور كتابة ص483).

(2) ابن عذاري. م. ن. ص228، ابن الخطيب، م. ن. ص58-59 المقرئزي اعطاء الحنفا بذكر أئمة الحنفا ، ص147).

(3) تزيد فيها نسبة معدن الذهب عن المعادن الأخرى المسبوكة.

(4) وشعارهم ينطبق (علي أفضل الوحيين وزير خير المرسلين) المقرئزي المصدر السابق ج1 ص115-116، النويري، نهاية الأرب ج26 ص41.

(5) اختطها القائد جوهر الصقلي سنة 358 هـ، وتقع في السهل الرملي الممتد في شمال شرق القسطنطينية، يحدها من الشرق جبل المقطم ومن الغرب ترعة الخليج المتفرعة من النيل، وكان لها سور سميك يمر فوقه فارسان جنباً إلى جنب وفي الوسط اختط قصر المعز والجامع الأزهر وأطلق عليها اسم "المنصورة" تيمناً بمدينة المنصورة (صبره) التي بناها المنصور والد المعز لدين الله بجوار القيروان وبقيت هذه التسمية حتى جاء المعز إلى مصر سنة 362 هـ فأسمها القاهرة تفاولاً بأنها ستقهر الخلافة العباسية وكانت القاهرة أشبه في بدايتها مدينة بالقاعدة العسكرية فلم يسمح بسكنها أو الدخول إليها بدون إذن خاص، وظلت كذلك حتى أواخر عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (القرن الخامس الهجري) عندما أحرقت مدينة القسطنطينية فانتقل أهلها إلى القاهرة. أما اصطلاح (القاهرة المحروسة) ربما يأتي من عزلتها وحراستها القوية فضلاً عن أسوارها المنيعه (ابن الخطيب، المصدر السابق ص 48 - 49 هامش رقم 4).

الولايات الخاضعة لسلطتها⁽¹⁾.

ومن ثم بدأ الفاطميون يقلصون النفوذ العباسي فتقدموا لاحتلال بلاد الشام واعتبروها قاعدة لحراسة بلاد المغرب ورأس جسر نحو بغداد حاضرة العباسيين وكذلك نحو بلاد الحجاز حيث أرسل المعز لدين الله الفاطمي إلى الحسن بن جعفر الحسني " بتقليد الحرم وأعماله " ⁽²⁾، ولكن مع ذلك فقد أصبحت الخلافة العباسية هي القوة الوحيدة التي كانت تهيمن روحياً وسياسياً على العالم الإسلامي وذلك على الرغم من أن قوة جديدة تمثلها بالخلافة الفاطمية التي بسطت سيطرتها على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي.

الفاطميون وأمويو الأندلس:

اتخذت العلاقات بين الفاطميين وأمويي الأندلس طابعاً عدوانياً فقد اتجه الفاطميون منذ قيام دولتهم في المغرب إلى تحقيق أهدافهم التوسعية نحو بلاد الأندلس التي تتوافر فيها الخيرات وتنعم بالاستقرار، فنشروا دعائهم وعيونهم لاستطلاع أحوال البلاد السياسية والعسكرية والتعرف على دخلوا الأندلس قبل قيام الدولة الفاطمية زودوا عبيد الله المهدي بكثير من المعلومات عن أحوال الأندلس السياسية والإدارية ويبدو إن القاطمين لم يكتفوا لك بل اتخذوها الخطوات العملية في تحدي أمويي الأندلس والتحرش بهم فضلاً عن إظهار قوتهم في أقصى بلاد العدو فحاصروا سبتة، القاعدة الحصينة للأمويين ومركزهم المهم في الاتصال بزعماء المغرب إدارة الريف و الانطلاق نحو مراكز النفوذ الأموي في هذه البلاد.

أما إجراءات الأمويين في علاقاتهم مع الفاطميين، فيغلب عليها طابع الدفاع عن كياناتهم السياسي ضد تعديات الفاطميين الذي اتخذ موقفهم طابع الهجوم ومن وسائل الأمويين في النضال ضد خصومهم الفاطميين اتخاذ لقب الخلافة وانتحال إمارة المؤمنين لتوجيه عواطف المسلمين في المغرب والأندلس وذلك لعزلهم وتحديد نفوذهم الديني والسياسي فضلاً عن جهود الأمويين في جذب أنصار الفاطميين وولاتهم بمختلف الإغراءات ودعم حركات المعارضة والثورات وتبني

(1) د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 112 - 113.

(2) ابن عذاري م. ن ص 231 ابن الخطيب م. ن ص 58؛ المقرئ م. ن ص 120، ابن الأثير، م. ن ص 112.

العملاء و الصنائع والخارجين عليهم وتزويدهم بالأموال والسلاح، كما بعثوا عيوناً و رقباء ووسطاء في جهات كثيرة من المغرب لبحث الأفكار المضادة للنفوذ الفاطمي وأغلبهم كان يستتر بالتجارة أو بالزيادة فتمكنوا من تزويد الأمويين بمعلومات عن نوايا أهل الأندلس الذين كانوا قد توطنوا المغرب منذ القرن الثالث الهجري، وكذلك التجأ الأمويون إلى التشهير بالفاطميين و طرد العناصر المشبوهة من الأندلس والتضييق عليهم وقتل من تظاهر بالدعوة للفاطميين، لما لم يتورع الأمويون من استعمال سلاح القرصنة للقضاء على القوة البحرية لأعدائهم الفاطميين، حيث اهتموا بدور صناعة السفن و المراكب في مدن طركونه والمرية والجزيرة الخضراء ومالته وميورقة ولقنت وشلب، فأنشأوا أسطولاً قوياً ينازع سلطة الفاطميين في البحر المتوسط، استطاع هذا الأسطول الاستيلاء على طنجة و مليلة سنة 314 هـ في حركة الوليد بن هشام الذي أدعى الانتماء و لبني أمية و استبد بشئون برقة و جعل هدفه مصر و كان أعوانه من قبائل لواتة و زناتة كما أن أنصاره في مصر، عرباً من بني قررة و في التاريخ اللاحق للفاطميين أي بعد عبيد الله المهدي اعتمدوا وسائلهم الجديدة في الصراع مع الأمويين و أجداها هو التشهير والطعن بماضي الأمويين و موقفهم من القوي الإسلامية فكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يصف أعدائه الأمويين بالمتغلبين⁽¹⁾، والظاهر أن هذه الحملة من التشهير ضد الأمويين قد أظهرت حركة معادية استهدفت الإطاحة بحكمهم وقد انتشرت هذه الحركة التي كان يقودها شخص قرطبي يسمى أبا الخير الداعي في مدن الأندلس، قرطبة والزهراء وسائر الكور، غير أن الأمويين استطاعوا تحجيم الحركة ومن ثم القضاء عليها.

ولعل من المفيد أن نذكر أن كلا الطرفين استخدمتا قواً سياسية لاستعدادها ضد الطرف الآخر، و كان الأدارسة قد لعبوا هذا الدور بكونهم صنائع وأعوان تارة للفاطميين وطوراً للأمويين ولكن تسخيرهم بهذا الاتجاه لم يخدم وجودهم بل عجل بنهايتهم وسقوط إماراتهم سياسياً وعسكرياً⁽²⁾.

(1) كان المعز لدين الله الفاطمي يصف الأمويين أمام من يحضر مجلسه بأوصاف كثيرة لكي يحط من شأنهم (انظر للاستزادة د. موسى لقبال، المصدر السابق ص 382.

(2) السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج 1 ص 89.

الفصل التاسع

دولة المرابطين

- 1- أصل المرابطين
- 2- مراكش عاصمة المرابطين
- 3- المرابطون و الخلافة العباسية

obeikandi.com

دولة المرابطين

(448 - 541 هـ / 1056 - 1147 م)

أصل المرابطين:

يجمع المؤرخون على أن أصل المرابطين من قبائل صنهاجة اللثام الجنوبية الضاربة في الصحراء الموريتانية، و بطونها، لمتونه وجداله ومسوفه، وقد تحالفت هذه البطون لتواجه ظروف المغرب الإسلامي، وكانت لمتونه قد تولي رئاسة هذه القبائل وسيطرت عليها، فبرز من بين رجالها محمد بن نيفات النمطي (1) ليقود قبائل صنهاجة غير أنه قتل، فتولت جدالة الرئاسة ممثلة بيحيى بن إبراهيم الجدالي (2) الذي سعى إلى طلب العلم الدينية في مدارس القيروان و فاس فتعرف هناك على شخصية " وحاج بن زلوا النمطي الذي ندب أحد تلامذته وهو عبد الله بن ياسين الجزولي (3) لتفقيه قبائل صنهاجة، و هناك في مضارب لمتونه شرع هذا الأخير في التثقيف و الإرشاد إلى أصول الدين و فروعه و لكن وفاة يحيى بن إبراهيم الجدالي دفعت هذه القبائل إلى الانصراف عن الأحكام و الحدود التي كان قد وضعها لهم عبد الله بن ياسين حيث ثقلت عليهم وطأته فبرموا بدعوته الإصلاحية الأخلاقية التي كانت تدعوا إلى رفع المنكرات وإجتنب المحذورات (4).

اتجه عبد الله بن ياسين إلى بلاد السودان، عله يجد أنصاراً له هناك و قد صحبه سبعة من رجال صنهاجة انتبذوا لهم موضعاً في ربوة من الأرض تحيط بها المياه من جهاتها الأربع، ولم يلبث أن أسس رباطاً " والرباط من المرابطة أي

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق ص 226.

(2) م. ن ص 227.

(3) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ص 76، ابن الخطيب م. ن ص 226.

(4) ابن الخطيب م. ن ص 227.

ملازمة الثغور للجهات حيث ترابط خيل المجاهدين " اجتمع له فيها نحو ألف رجل سماهم المرابطون ⁽¹⁾ اخلصوا له وأطاعوه واستطاع أن يحولهم من مجرد رعاية جناة إلى طبقة من المحاربين المؤمنين برسالتهم في الإسلام وكون منهم ومن غيرهم الذين التحقوا به جيشاً جعل علي قيادته صاحبه " يحيى بن عمر " ⁽²⁾ وهو من قبيلة اللمتونيين الصناهجة وانطلقت قوات المرابطين نحو المغرب الأقصى وسرعان ما خضعت لهم قبائل لمتونه ومسوفة وجدالة ولمطة وغيرها من قبائل صنهاجة الضاربة في الشمال حتى درعت التي يقول عنها ابن الخطيب أنها تقرب من سبعين قبيلة ⁽³⁾ ثم اتجهوا نحو درعة سنة 445 هـ في إعداد ضخمة وهزموا جيوش مغاوة وصاحب سبلماسة ودرعة ودخلوا مدينة سلجماسة كما نشطوا في محاربة قبيلة زناتة وهي من كبريات القبائل في مناطق تافيلت فانضمت إليهم قبيلتا جزولة ولمطة واستطاعوا الاستيلاء على بلاد السوسى سنة 448 هـ، واسترداد واحات درعة والتوغل في احوازها واجتيازهم الأطلس الغربي واحتلال بلاد جدميوه.

وواصل المرابطون تقدمهم فدخلت جيوشهم الكثيفة مدينة أغمات وما حولها سنة 445 هـ ثم تدفقوا على بلاد المصاعدة وحاربوا قبيلة برغواطة في إقليم تامسنا والريف الغربي و كان من نتيجة هذه المعارك أن قتل عبد الله بن ياسين سنة 450 هـ وذكر ابن الخطيب أن قائد المرابطين هذا جمع أصحابه وحثمهم على الوحدة والتماسك قبل أن يموت ⁽⁴⁾ وقد تولي يوسف بن تاشفين اللمتوني أمر

⁽¹⁾ وعرفوا أيضا " الملتمين " لأنهم كانوا يصنعون كتاما يقيمهم هاجرة الصحراء و بردها و يورد ابن الأثير رواية عن اتخاذ اللمتونيين، اللثام " سنة " و غدوا لا يزيلونه ليلا و نهرا حتى لا يعرف الشيخ من الشاب (الكامل ج 9 ص 223) ثم انظر: د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام و السياسي و الديني و الثقافي ج 4 ص 115 هامش (3).

⁽²⁾ وهو ابن عم عبد الله بن ياسين الذي قتل في هذه المعارك و خلفه أخوه أبو بكر بن عمر الذي اتخذ يوسف بن تاشفين قائدا من قواده.

⁽³⁾ ابن الخطيب، المصدر السابق ص 225.

⁽⁴⁾ أعمال الإعلام ص 230.

جيوش المرابطين⁽¹⁾ وبدأ يزحف به نحو المغرب الأقصى فاحتل مدينة فاس سنة 454 هـ وراح يتجول بأطراف المغرب ثم عمد إلى تأسيس مدينة مراكش لتكون عاصمة للمرابطين ومنطلقاً لهم ومركزاً لقواتهم في جنوب المغرب بدلاً من مدينة أغمات.

وسعي يوسف بن تاشفين إلى تمويه الأوضاع لصالحه وتفرد به بحكم المرابطين فيروي ابن الخطيب أن زوجة يوسف بن تاشفين، أشارت عليه أن يستبد بأمر عمه أبي بكر بن عمر الذي كان قد اختاره قائداً في جيوشه، فيلاطفه بالأموال والطعام والكساء ويرده إلى الصحراء التي خرج منها نفعل ذلك ومضي أبو بكر بن عمر إلى الصحراء سنة 465 هـ حيث قتل هناك في احدي معاركة في بلاد السودان سنة 480 هـ⁽²⁾ وبذلك برز يوسف بن تاشفين أميراً أو أحد لدولة المرابطين.

مراكش عاصمة المرابطين⁽¹⁾:

يمكن القول أن تأسيس مدينة مراكش⁽³⁾ كان بمثابة حلول مرحلة جديدة في بلاد المغرب خاصة وفي العالم الإسلامي حيث أصبحت من مراكز الثقافة والعلم

(1) علي أثر الشقاق الذي حدث بين قبيلتي لمتونة و مسوفة ببلاد الصحراء، رأي أبو بكر ابن عمر، ضرورة وجوده إلى جانبهم في الصحراء ليصلح بينهما، فعهد إلي ابن أخيه يوسف بن تاشفين قيادة الجيوش و قتاله قبيلة زناتة المعارضة (ابن الخطيب المصدر السابق ص 232).

(2) ابن الخطيب، المصدر السابق ص 233.

(3) مراكش اسم مشتق من اوراكش وتعني ابن كوش وكوش بالبربرية معناها الأسود وإنما سميت نسبة إلى عبد أسود كان يقيم في موضعها ويخيف المارة اسمه مراكش كما تعني مراكش عبارة امشي مسرعا في لغة المصامدة لان موضعها كان مأوي النصوص وقطاع الطرق وكان المسافرين يقولون لرفقائهم هذه العبارة عند مرورهم بهذا الموضع (عبد الواحد المراكشي، المعجم في تلخيص أخبار المغرب ص 100، ابن خلكان، وفيات الأعيان ج 5 ص 90) و مراكش مدينة عظيمة في المغرب الأقصى علي سفح جبل الأطلسي الكبير ويمر في شمالها نهر تاتسنيث و تمتاز بخصوبة تربتها الحمراء وجودة مناخها ومناظرها الخلابة حيث توجد فيها غابات النخيل الخضراء وبجوارها الثلوج البيضاء علي قمم جبال الأطلسي وقد تحققت عظمتها أثناء الموحديين الذين اتخذوها هم أيضا عاصمة لإمبراطوريتهم الواسعة وتركوا فيها مآثرهم وأهمها مسجد الكتبية وصومعته المشهورة (ابن الخطيب، المصدر السابق ص 234 مع هامش رقم 1).

والسياسة وحاضرة لدولة المرابطين الكبرى ولعبت دوراً كبيراً في توجيه الأحداث السياسية والعسكرية فضلاً عن نفوذها الديني والفكري حيث كانت دولة المرابطين تستند قوة دينية سلفية وعلي الرغم من اختلاف المؤرخين في تعيين إختطاط المدينة فإن الإجماع علي بناءها كان في سنة 454 هـ إذ تم الانتهاء منها سنة 459 هـ ⁽¹⁾ وكان تأسيسها علي يد يوسف بن تاشفين.

" فاستوطنها الناس بعد أن تملك أرضها بالشراء " ⁽²⁾ ويوضح المؤرخ ابن أبي زرع ذلك، أن يوسف بن تاشفين، اشترى موضع مراكش من جماعة المصامدة فسكن الموضع بخيام من الشعر وأسس مسجدها الجامع وقصبة صغيرة لخرن أمواله وسلاحه " ⁽³⁾ وذكر أمير المرابطين نفسه كان يعمل في الطين والبناء مع الخدم والفعلة لتشييد المسجد والظاهر أنه لم يؤسس سوراً حول المدينة ولكنه نشط بحفر الآبار وجلب المياه إليها غير أن ابنه علي بن يوسف ابتني سور المدينة سنة 526 هـ و جعل لهذا السور أبواب عدة منها باب أغمات و باب دكالة و باب الدباغين و باب الصالحة و باب الشريعة.

ومن المفيد القول، أن مراكش بقيت تحافظ علي سمعتها العامة كقاعدة عسكرية لقوات المرابطين حتى دخلتها جيوش الموحدين، فأقاموا فيها الدور و اتخذت القصور وجلبت إليها المياه من أغمات لسقاية بساتينها و يشير صاحب كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار إلي أن مراكش " ارتقت أيام المودين فأقيمت فيها المنشآت العظيمة و أمهرت بمختلف أنواع المباني ومنها البيمارستان (المستشفى) الذي وصف بأنه أعظم ما أقيم في العالم الإسلامي و قد سمي بـ (دار الفرج) ويقع في شرق الجامع " يدخله الغليل فيعين ما أعده فيه من المنازة والمياه

⁽¹⁾ لم يشر البكري الذي كان معاصراً إلي تاريخ بناءها سنة 454 هـ لذلك يذهب بعض المؤرخين أن تأسيسها كان سنة 462 هـ و إلا ما فات أن يشير إلي ذلك.

⁽²⁾ ابن الخطيب، المصدر السابق ص 234.

⁽³⁾ الأتيس المطرب في بعض القرطاس ص 89.

والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوهة ويستطعمهما ويستستقيهما فتنعشه من حينه بقدرة الله تعالى " (1)

لقد ساهم وجود مراكش إلي حد كبير في تدعيم مركز المرابطين و نفوذهم في المغرب الإسلامي وأوجد لهم مركز انطلاق لإخضاع بعض القبائل مثل غمارة و غياثة و بني مكود و مغراوة، كما تم لهم الاستيلاء علي مليلة ووجدة و بلاد بني سناس و علي تلمسان و تنسي و وهران و جبل وانشريثي (2) وبعد أن أتم يوسف بن تاشفين احتواء الأندلس في معركة الذلاقة الشهيرة ضد جيوش الممالك الأسبانية الشمالية (3) ، أصبحت مراكش عاصمة لقطرين هما المغرب و الأندلس

علي أن دولة المرابطين، بعد وفاة يوسف بن تاشفين سنة 500 هـ و تولي ابنه علي، كانت في أوج قوتها، إذ أصبحت إمبراطورية كبرى تمتد من بجاية شرقاً إلي السوسي غرباً و من السودان جنوباً إلي سرقسطة و الثغر الأعلى في الأندلس شمالاً وكانت مراكش مركزاً للحكم و انطلاق الجيوش. غير أن حكام المرابطين بدأوا يفقدون قوتهم بعد انغماسهم في الترف و الرفاهية و الرقة بسبب فقدانهم لخشونتهم كرجال حرب، فضلاً عن سيادة الثقافة الأندلسية في مراكش التي تسربت إليها من الأندلس حيث خففت كثيراً من جفونهم فتدهورت جيوشهم وأصبحت لا تقوي علي قمع الثورات و الاضطرابات و التمردات المستمرة في بلاد المغرب و الأندلس، إضافة إلي ما تعرضوا إليه من الضربات العنيفة التي كانت تسددهما لهم الممالك الأسبانية الشمالية، مما أدي إلي استنزاف قواهم و قضي علي مواردهم هناك و قد خذلهم أهل الأندلس لما طلب المرابطون معونتهم المادية و البشرية فتحولوا عنهم و طردوا و لاتهم فبدأت علائم الضعف تدب في جسم دولتهم و بخاصة بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين و تولي ابنه تاشفين، حيث

(1) مجهول، ص 210.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق ج 6 ص 381.

(3) د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 723؛ د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج 4 ص 119؛ د. أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب و الأندلس ص 305.

توالت علي هذا الأخير الهزائم في المغرب علي أيدي قوة جديدة هم الموحدون، وبعد وفاة تاشفين بن علي بن يوسف سنة 539 هـ انطلقت ثورات الأندلسيين بوجه المرابطين⁽¹⁾.

ولعل من أسباب ضعف دولة المرابطين وانهيارها، هو العامل الديني المرتبط بالفقهاء المرابطين الذين لم يولوا دراسة الحديث، الاهتمام ما يستحقه فهم لا يرجعون إلي الأصول لاستنباط الأحكام، وإنما بالأحاديث المجموعة في كتب الفروع، الأمر الذي جعلهم يبتعدون عن علم أصول الفقه الذي تستنبط بمقتضاه الأحكام الشرعية؛ كما اتخذ المرابطون " فلسفة التجسيم " وهي الالتزام بالآيات القرآنية الكريمة التي يرد فيها ذكر صفات الله، النص الحرفي لها، مما يفضي إلي تجسيم للذات الإلهية وإلي إثباتات نظرية لصفات جسمانية لله تعالى، فضلا عما أثارته قراءة كتاب " إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالي في بلاد المغرب من موجة من الغضب لدي فقهاء المرابطين، حيث أن الغزالي كان قد فضح فيه نزعات هؤلاء الفقهاء في دراساتهم الفقهية وحصولهم علي المناصب الدينيّة مما اضطر الأمير علي بن يوسف علي حرق كتب الغزالي علي باب مدينة مراكش نتيجة لضغط الفقهاء عليه، حيث أثار هذا الإجراء أهل المغرب فدفعهم إلي تأييد ثورة المهدي بن تومرت زعيم الموحدين .

(1) مجهول، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص 63.

المرابطون و الخلافة العباسية:

تشير المعلومات المتوفرة لدينا، إلى أن العلاقات بين المرابطين و خلفاء بني العباس قد اتخذت طابعاً ودياً، حيث لم يشأ يوسف تاشفين أن يتلقب بألقاب الخلافة احتراماً لمنزلتهم الروحية، و قد علل أمير المرابطين عدم تلقيه بأمرير المؤمنين و هو ما اختص به الخلفاء العباسيون عندما طالبه بعض أصحابه بذلك قال: "حاشا لله أن نتسمي بهذا الاسم إنما خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة و لأنهم ملوك الحرمين و المدينة و أنا راجلهم و القائم بدعوتهم" (1)

لقد استخدم المرابطون، السواء، وهو شعار العباسيين، شعاراً لهم في ملابسهم و أعلامهم، و تلقب يوسف بن تاشفين، بلقب " أمير المسلمين " و " ناصر الدين " منذ سنة 468 هـ، حتى إن ابن عذاري يذكر صراحة، أن يوسف بن تاشفين " كان يخطب لبني العباس، وهو أول من تسمي بأمرير المسلمين " (2) و بخاصة بعد انتصاره في معركة " الذلاقة " التي حاولت الممالك الأسبانية الشمالية أن تقوض الحكم العربي الإسلامي في الأندلس، وبعد إسقاطه ملوك الطوائف الذين تفردوا بالحكم هناك وكتب إلي الخليفة العباسي يطلب منه الخلع والإعلام السود والتقليد فلم يعترض الخليفة علي ذلك و لعل من مظاهر توطد العلاقات مع الخلافة العباسية، أن المرابطين نقشوا أسهمهم علي السكة وذلك منذ سنة 450 هـ إلي جانب اسم " عبد الله " الذي ورد في الرسالة التي بعث بها الخليفة المستظهر بالله إلي علي بن يوسف بن تاشفين، علي إن اسم هذا الخليفة هو أحمد (3).

(1) كتاب الحلل الموشية ص 65.

(2) قامت حول هذا اللقب مشكلة شرعية و هي: هل يجوز لخطباء المساجد أن يدعوا ليوسف بن تاشفين باعتباره أميراً للمسلمين ؟ علي أن هذا الأخير لم يصرح للخطباء بإقامة الدعاة إلا بعد أن أرسل بعثة من الفقهاء إلي الخليفة العباسي المستظهر بالله ، يستفتيه في جواز حمل هذا اللقب فلم ير الخليفة بدا من عرض هذا الأمر علي فقهاء بغداد الذين اجتمعوا برئاسة الإمام أبي حامد الغزالي سنة 484 و أقفوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا الكتب (ابن عذاري المصدر السابق ج 4 ص 124 ، د . حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج 4 ص 313.

(3) ابن الأثير، الكامل ج 10 ص 51.

ويزيدنا ابن الأثير توضيحاً، من أن العلماء خاطبوا يوسف بن تاشفين لسي عودته من بلاد الأندلس منتصرا ودخوله مراكش حاضرة ملكه، بأن طاعته ليست واجبة حتى يذكر اسم الخليفة في الخطبة و يأتيه عنه تقليد بإقراره فأرسل رسله إلى بغداد فأتاه التقليد مع الخلع والأعلام ولقب بلقب " أمير المسلمين وناصر الدين " ويمضي هذا المؤرخ قائلاً، أن يوسف بن تاشفين لما استولي على بلاد الأندلس جميع الفقهاء وأحسن إليهم، فقالوا له: " ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك على كافة، فأرسل إلى الخليفة رسولا يحمل هداياه و معه كتاب يذكر فيه ما فتح الله عليه من بلاد الفرنجة ويطلب منه تقليدا بولاية الأندلس التي دانت له، فبعث إليه الخليفة، التقليد بالحكم و لقبه " أمير المسلمين وأرسل إليه الخلع "(1) وهكذا تقدم لنا هذه المعلومات، الصلات الوطيدة التي كانت تربط الخلافة العباسية بالمرابطين طوال مدة حكمهم للمغرب الإسلامي والأندلس التي استغرقت قرناً من الزمن تقريباً.

(1) م. ن. ص 57.

الفصل العاشر

دولة الموحدين

1- تمهيد

2- علاقات الموحدين بالخلافة العباسية

obeikandi.com

دولة الموحدين

(541 - 646 هـ / 1143 - 1248 م)

تمهيد:

أورث أبو عبد الله محمد بن تومرت الهرغي (485 / 524 هـ) وهو مؤسس الدعوة فقيهاً في جماعة، أفكاره وآراءه في التوحيد الذي هو رأس أركان الإيمان في الإسلام وسرّ العقائد الإيمانية الذي هو علم الاعتقاد وحتى عرف مريدوه وأنصاره وجميع من آمن بدعوته بالموحدين، لأنهم أول من تحدث بهذه الآراء في بلاد المغرب، وقد أصبحوا، بعد وقت وجيز من سريان الدعوة، القوة التي أعلنت الثورة على المرابطين إذ بدأوا منذ سنة 514 هـ وسرعان ما تحولت حركتهم الدينية⁽¹⁾ إلى حركة سياسية لإسقاط دولة المرابطين وإقامة دولتهم على أنقاضها. خاض محمد بن تومرت مبارك عدة ضد المرابطين، تكبد هؤلاء فيها هزائم متتالية وتوالى انتصارات الموحدين، فكان من نتيجتها أن وجه محمد بن تومرت رسالة إلى المرابطين يدعوهم فيها إلى طاعته وينذرهم بسحقهم إذا لم يستجيبوا، وقد أورد صاحب الحل الموشية نص هذه الرسالة بقوله "...وكفا بنا هذا إليكم أذار وأذار، وقد أعذر من أنذر"⁽²⁾ ويعد لنا أبو بكر الصنهاجي المعروف بالببزيق، المواقع بين المرابطين والموحدين، ويقول إنها بلغت ثمان غزوات متوالية⁽³⁾، الأمر الذي أتاح للموحدين أن يبسطوا سيطرتهم المطلقة على منطقة

(1) قامت فكرة الموحدين على أساس " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " ووجوب الاعتقاد في استقاء الأحكام على القرآن والسنة دون غيرهما، وموافقة مذهب أبي الحسن الأشعري سوى مسألة الصفات ، فإنهم وافقوا المعتزلة في نفيها

(2) مجهول ص 81

(3) كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ص 74 - 78

السوس. وفي سنة 518هـ سار محمد بن تومرت بقواته نحو منطقة " تينملل " (1) الصغيرة التي تقع فوق ربوة عالية في سفح جبل درن وهو أحد شعاب جبال الأطلس، المشرفة على مراكش بمسافة لا تزيد عن المائة كيلومتراً واتخذها داراً ومعسكراً وقاعدة للانطلاق، وبدأ يرقب عن كثب، المرابطين وتحركاتهم حتى سنة 520 هـ، حيث بادر إلى تنفيذ خطة الهجوم على نطاق واسع فأرسل جيشاً ضخماً من الموحدين بقيادة أبي محمد البشير، وقد التقى هذا الجيش بجيوش المرابطين التي هزمت وجَد الموحدون في مطاردتهم، غير أن أكبر المعارك التي خاضها الموحدون ضد أعدائهم، هي التي وضع خطتها محمد بن تومرت سنة 524 هـ، حيث أفضت إلى الدخول في مراكش، ولكن المرابطين استعادوها منهم في السنة التالية.

لقد تأهب محمد بن تومرت للمعركة الفاصلة وجمع أنصاره وعساكره ووجه إليهم رسالة يحثهم فيها بإنهاء المرابطين الذين سماهم باسم " المثلثين " أو " المجسمين " أو " الزراجنة " (2) وجعل قائديه المعتمدين أبا محمد البشير وعبد المؤمن بن علي في مقدمة جيوشه، وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بالمرابطين في البداية، لكن الموحدين لم يستطيعوا أن يدخلوا مراكش مما جعلهم يعبنون لمعركة أخرى زادوا فيها ضغوطهم وهزموا المرابطين ثم زحفوا نحو مراكش وربطوا أمام أسوارها وأبوابها واستمروا في حصارها وبدأت المناوشات بين الطرفين، كان المرابطون يهزمون فيها في كل مرة، ومع ذلك فإن الموحدين لم يستطيعوا أن يصنعوا نهاية للمرابطين الذين استنفروا سائر أمراء القبائل

(1) يكتبها ياقوت " تين ملل " ويقول أنها جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البربر بين أو لها ومراكش سرير ملك بني عبد المؤمن بن علي بها كان أول خروج محمد بن تومرت (معجم البلدان ج 2 ص 445).

(2) تشبها لهم بطائر الزرجان وهو أسود البطن أبيض الريش، فالمرابطون باعتقاده بيض الثياب سود القلوب (الحلل الموشيه ص 86، انظر محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس / القسم الثاني ص 185

المغربية الموالية لهم وولاتها وقادتها، فوافقهم بالعساكر والحشود وكان من نتيجة ذلك إن وقعت بين الطرفين أكبر معركة هي معركة البحيرة هُزم فيها الموحدون وتكبدوا خسائر فادحة، إذ قتل منهم عدد كبير ولم ينج من عساكرهم إلا أربعمائة بين فارس وراجل وسقط بين القتلى أبو محمد البشير أكبر قادتهم وقتل معه معظم الرؤساء والقادة ومنهم الأصحاب العشرة لمحمد بن تومرت⁽¹⁾.

وفي 524 هـ توفي محمد بن تومرت على أثر هزيمة جيوشه أمام المرابطين فخلفه عبد المؤمن بن علي، الرياسة ولعل توليه أمر الموحيدين يمثل مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين المرابطين والموحيدين وبداية تحول في تاريخ الموحيدين. ينتمي عبد المؤمن بن علي إلى قبيلة (كومية) وهي بطن من بطون قبيلة زنانة وقد استطاع أن يضع الأساس المتين لدولة الموحيدين، فقد قضى عاماً ونصف العام بعد توليه خلافة محمد بن تومرت، ينظم شئون الموحيدين ويحشدهم ويستنفذهم لجهاد المرابطين، وقد عبأ سنة 526 هـ جيوشاً جراراً وسار به لمنازلة المرابطين فأخضع أغلب أقاليم دولة المرابطين لسلطته، وذلك خلال السنوات من 526 - 540 هـ حيث جرت معارك محلية بينهما، كان النصر فيها دائماً للموحيدين، وفي نهاية عام 540 هـ لم يكن ثمة شك في غنهياد دولة المرابطين وسلطانهم في المغربين الأوسط والشمالى حيث بسط الموحدون نفوذهم على سائر القواعد الجنوبية للمرابطين، فيما عدا مراكش وبعض الثغور الشمالية ولكن بدا واضحاً إن دولة المرابطين راحت تتلقى الضربات المتتالية فتضعفها وتبدد قواها خلال تلك المعارك، وفي الوقت الذي بدأ الموحدون يقتربون من مدينة فاس للاستيلاء عليها، شعرا المرابطون بحراجة الموقف، وبعد استكمال الموحيدين الانتشار في مدينة فاس سنة 540 هـ استعدوا للدخول إلى مراكش والظاهر أنه لا يمكن تحقيق ذلك إلا بإخضاع قبيلة مكننسة التي تحصنت في مدينة مكناسة التي أبقي الموحدون الحصار مضروباً حولها، ثم اتجهوا إلى مناطق آزمور وهي ربوع قبيلة صناهجة فاستولوا عليها ثم انضمت قبيلة دكالة إليهم واحتلوا جبل إبلحيز

⁽¹⁾ الحلل الموشيه ص 80، ابن أبي زرع، الأئيس المطرب ص 114، ابن الأثير الكامل ج 10 ص 205

الذي يشرف على مراكش وبذلك احكموا الحصار حولها وعند أول لقاء بين الطرفين هُزم جيش المرابطين وتمكن جند الموحدين من تسلق أسوار مراكش واقتحموها وعندها سقط آخر معقل للمرابطين وزالت دولتهم سنة 541 هـ (1) كما انتهى حكم أسرته بمقتل إسحق بن علي بن تاشفين آخر أمراءهم على يد الموحدين (2).

وبدأ الموحدون عهداً جديداً في مدينة مراكش إذ اتخذوها حاضرة لهم فأدخلوا عليها إصلاحات كثيرة وبنوا فيها مسجدهم الجامع وأتموا جلب المياه إليها وصنعوا أسقيات لها بقرب دار الحجر (3). وفي 542 قدم على عبد المؤمن بن علي وفد من أهل اشبيلية رفعوا إليه البيعة، مكتوبة بخطوطهم فأستحسن خليفة الموحدين موقفهم وقبل طاعتهم وكان لذلك أثره في نفوس الموحدين وإيثارهم لأشبيلية باتخاذها حاضرة للأندلس في عهدهم.

والظاهر أن الموحدين بعد ربع قرن تقريباً من احتوائهم للأندلس لم يسعهم السيطرة على مقاليد حكمهم في الإقليمين المغرب والأندلس وبخاصة بعد تحالف الممالك الأسبانية الشمالية ضدهم ونقض القشتاليين للهدنة القائمة بينهم التي عقدت سنة 607 هـ إبان عبور الموحدين إلى الأندلس ومحاصرتهن للمدن والحصون في بلاد قشتالة، لذلك تراخت همهم في المحافظة على كيان دولتهم، فاندلعت ضدهم ثورات خطيرة هددت نفوذهم وزعزت سلطتهم الدينية والسياسية وسقطت بأيدي الثوار بلاد تامسنا وبلاد المصامدة وهاجت قبائل حاحة ورجراجة وهزميرة وهكسورة ودكالة، وعلى الرغم من أن الموحدين استطاعوا في مرحلتهم الأخيرة أن يخمّدوا هذه الثورات وينقذوا حكمهم من السقوط ولكن معركة "العقاب" بينهم وبين جيوش الممالك الأسبانية الشمالية جاءت لتضع حداً لدولة الموحدين ليس فقط في الأندلس وإنما في المغرب الإسلامي، حيث توجهت كتائب الموحدين

(1) ابن عذاري، المصدر السابق ج 4 ص 108، ابن خلدون، المصدر السابق ج 6 ص 232

(2) البيهقي، أخبار المهدي بن تومرت ص 104

(3) أحد ضواحي مراكش أنظر الإدريسي، نزهة المشتاق ص 68، 69.

وعساكرهم إلى طليطلة عاصمة بلاد قشتالة لمواجهة حشود هؤلاء الصليبيين هناك سنة 609 هـ / 1212م حيث اشتبكوا بمعركة أسمتها المصادر القشتالية "لاس نافاس تولوسا" التي أطلق عليها المؤرخون المسلمون "العقاب" فهزمت جيوش الموحدين على أثرها وتقدمت الجيوش الأسبانية الشمالية المتحالفة إلى المدن الأندلسية المجاورة لحصن العقاب فاستولوا على باتيوس وكاسترد فرات وتولوسا وبياسة وبسطة ثم عادت بعض فلول الموحدين إلى أشبيلية وعبرت مضيق جبل طارق إلى مراكش مما وضع نهاية نهيار دولة الموحدين بعد هذه المعركة.

وبوفاة آخر أمرائهم محمد الناصر انتهى دورهم في بلاد الأندلس بعد سقوط أشبيلية بأيدي الأسبان غير أن دولتهم استمرت في المغرب حتى سنة 668 هـ وهي السنة التي قتل فيها آخر حاكم موحد نصب من قبل المرينيين، أمام أسوار مراكش حيث استولى الخراب والدمار على معظم ديارهم ودخل ورثتهم بنو مرين إلى مراكش وبدأت مرحلة جديدة بولادة الدولة المرينية في بلاد المغرب الإسلامي.

علاقات الموحدين بالخلافة العباسية:

يرى الموحدون أحقيتهم في لقب الخلافة الإسلامية لأنهم على حد زعمهم أكثر المسلمين إيماناً وأصحهم مذهباً، ولما استولى هؤلاء على بلاد الأندلس وامتد نفوذهم من طرابلس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وحاولوا الاستيلاء على مصر وما يليها من بلاد المشرق الإسلامي، ظهروا وكأنهم يتحدثون الخلافة العباسية، وقد زاد ذلك التحدي وضوحاً عندما أقر محمد بن تومرت عبد المؤمن بن علي قائداً على جيش الموحدين وقال لأتباعه: "أنتم المؤمنون وهذا أميركم"⁽¹⁾ وبهذا لم يجد أتباع محمد بن تومرت حرجاً في أن يلقبوا عبد المؤمن بن علي بلقب "أمير المؤمنين"⁽²⁾ وهذا اللقب هو من ألقاب الخلافة العباسية وحدها. ولا شك في أن

(1) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 188

(2) اعتبار الموحدين هم خلفاء المسلمين في الأرض واكتسابهم النفوذ الروحي والمعنوي في العالم الإسلامي بدلاً من العباسيين

اتخاذ عبد المؤمن بن علي لقب خليفة وتسميته بأمر المؤمنين وإعلان رسوم الخلافة ببلاد المغرب في الوقت الذي أشرفت فيه الخلافة الفاطمية على الزوال في مصر، يقدم صورة عن تردي العلاقات بين العباسيين والموحدين. ويذكر أن تغرى بردى، أن الخطبة للعباسيين ظلت مستمرة في المغرب حتى سنة 524 هـ / 1129 م وهي السنة التي تولى فيها عبد المؤمن بن علي أمر الموحدين فقطع الخطبة للخليفة العباسي المعتضد بالله وتلقب بلقب أمير المؤمنين⁽¹⁾ وما مدام المرابطون في حينها قد حرصوا على توطيد علاقاتهم بالخلافة العباسية بصور شتى ومنها عدم التلقب بألقابهم وضرب السكة بأسمائهم، فإن الموحدين سلكوا طريقاً مغايراً لنهج المرابطين في علاقاتهم بالخلافة فلم يعترفوا بالتقليد والأعلام السود والشارات التي كان العباسيون يرسلوها للمرابطين سابقاً وقطعوا كل صلة كانت تربطهم بالخلافة العباسية روحياً وسياسياً حتى سقوط دولتهم ولعل من المفيد أن نذكر، أنه على الرغم من سعي صلاح الدين الأيوبي خليفة الفاطميين في مصر لتوطيد العلاقات مع الموحدين بنية الحصول على قطع من الأسطول البحري الموحدى للاستعانة بها في دفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام والأراضي المقدسة في فلسطين، فإنه أدرك تردي العلاقات التي كانت تربط الموحدين بالخلفاء العباسيين وحيث كان هو مرتبط بهم روحياً ومصرياً، عندئذ خاطب أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي بلقب " أمير المسلمين " ولم يلقيه بأمر المؤمنين احتراماً للعباسيين لذلك لم يستجب خليفة الموحدين لصلاح الدين الأيوبي ولم يحقق له غرضاً إذ لم يعجبه أن يخاطبه هذا الأخير بهذا اللقب⁽²⁾.

(1) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج5 ص 50 - 51

(2) السلوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج 2 ص 63

الفصل الحادي عشر

إمارة بني مَرِين والإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

- 1- إمارة بني مَرِين
- 2- سقوط إمارة بني مَرِين.
- 3- الإمارات المحلية في المغرب الإسلامي
 - أ - إمارة بني عبد الواد في المغرب الأوسط (بلاد الجزائر).
 - ب - إمارة بني حفص في المغرب الأدنى (بلاد ليبيا وتونس).
 - ج - دور المغرب الإسلامي في احتضان العرب المسلمين بعد سقوط غرناطة.

obeikandi.com

إمارة بني مرين والإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

(1) إمارة بني مرين:

(592-957 هـ / 1195-1550 م)

كان بنو مرين قادة جيوش الموحدين وولاتهم وعمالهم في البلاد التي تخضع لسيادتهم ابتداء من المغرب الأدنى حتى الحافات النهائية الغربية للمغرب الأقصى وبعد أكثر من مائة عام من حكم الموحدين، بدأ بنو مرين يتحينون الفرصة للانقضاض على حكم الخلفاء الضعفاء الأواخر الذين فقدوا السيطرة على مقدرات دولتهم المترامية الأطراف حيث ظهرت بوادر الانهيار على مؤسساتها الإدارية والسياسية والعسكرية وقد أعلن المرينيون استقلالهم على منطقة طنجة وسبتة واعترف أهلها بأبي زكريا الحفصي بالسيادة عليهم كما أقرت بعض مدن الأندلس التي كانت تحت هيمنتهم بالحكم المريني، وبذلك أصبحت هناك قوتان تتقاسمان إرث الموحدين وهم المرينيون وبني عبد الواد وبخاصة في منطقة المغرب الأقصى، وبمرور الزمن تركز بنو مرين في حدود المغرب الأقصى والأوسط واستقلالها بحكم هاتين الأسرتين قد تم بسهولة لأنهما كانا يحكما هذه البلدان سابقاً باسم الموحدين.

ويمكن القول أن قيام دولة بني مرين الحقيقي بدأ منذ أن دخلوا مدينة مراكش حيث تمكن أحد أمرائهم وهو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من اجتياحها سنة 668 هـ وقد اتخذوها فيما بعد مركزاً لهم بعد أن كانت عاصمة الموحدين وحاضرتهم، وفي عهد هذا الأمير أطلق لأول مرة على دولتهم اسم " الدولة المرينية " نسبة إلى مرين الذي ينتسب إلى فرع من فروع قبيلة زنانة، كما أطلق عليها " الدولة الوطاسية " نسبة إلى وطاس بن فجوس بن جرماط بن مرين، وهو الفرع نفسه الذي حكم هذه الدولة.

وليس من شك في أن بروز اسم المرينيين غنما كان بسبب مساهمتهم الفعالة في "معركة الأرك " التي وقعت سنة 591 هـ / 1195 م بين الموحدين والأندلسيين

من جهة وبين الأسبان القشتاليين من جهة ثانية⁽¹⁾ حيث أبلوا فيها بلاءاً حسناً ولكن أصيب خلالها أميرهم محمد بن أبي بكر ومات متأثراً بجراحه فخلفه على رئاسة الدولة ابنه عبد الحق وكان عهد الأمير عبد الحق يمثل عهد القوة والتوسع، فقد دخل المرينيون جميع بلاد المغرب الأقصى وانتشروا في منطقة الريف سنة 610 هـ مستغلين ضعف خلفاء الموحدين واضطراب الأوضاع السياسية وتراجع الموحدين عن الثغور المتاخمة للفرنج والأسبان، وعدم الدفاع عنها، وعلى الرغم من وقوف الخليفة الموحدي يوسف المنتصر بوجه المرينيين وحشده لجيش يناهز العشرين ألف فارس، لكن بني مرين استطاعوا أن يهزموا جيش الموحدين في وادي نكور سنة 613 هـ / 1216م ثم زحفوا نحو مدينة رباط تازي وانتزعوها من الموحدين.

وفي غمرة الانتصارات التي كان يحرزها المرينيون على مواقع الموحدين وجيوشهم حدث انشقاق بين صفوف قوات بني مرين فخرج جيش منهم بقيادة عسكر بن محمد والتحق في صفوف الموحدين وتحالف معهم بعض عرب المشرق في رباح⁽²⁾، وفي معركة وادي سبو على مقربة من مدينة شافر كاست سنة 614 هـ تفرق بنو مرين وقتل أكثر جيشهم، غير أن بني مرين أقسموا على الثأر وما لبثوا إن التقوا في معارك عدة مع أعدائهم واستردوا نفوذهم وسلطتهم وخاصة في عهد أبي سعيد عثمان بن عبد الحق الذي راح يستغل ضعف الموحدين وإنخزال جيوشهم في أكثر مناطق المغرب الإسلامي وأخذ يدعو القبائل إلى الدخول في طاعته فأعلنت أكثر القبائل⁽³⁾ استسلامها والانحياز إلى جانبه.

⁽¹⁾ وكان الجيش القشتالي بقيادة الملك الفونس الثامن، حيث أقام في محلة الأراك حصناً عرف بحصن الأراك وقد جرت المعركة غرب المدينة الملكية وإلى شرق السهل الذي جرت فيه معركة الزلاقة الشهيرة سنة 479 هـ (ابن عذاري البيان ج 3 ص 191، محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين ج 2 ص 200).

⁽²⁾ ويسمون (عرب رباح) وهم أقوى القبائل العربية في المغرب الإسلامي
⁽³⁾ ومن القبائل التي انضمت إلى المرينيين، هواره وزركارة وتسول ومكناسة ويطوية وقشتالة وسدراتة وبهلولة ومديونة وفرضوا عليهم الخراج والضرائب ووجه إليهم الجباة والعمال، كما ألزم أهل فاس وتازي وقصر كتامة بتأدية ضريبة سنوية مقابل حمايتها فاستجابوا إتقاء من غاراته التي كان يشنها عليهم (ابن خلدون، العبر ج 3 ص 195).

وعلى الرغم من إغتيال أبي سعيد بن عثمان بن عبد الحق سنة 618 هـ — فإن المرينيون واصلوا تصديهم للموحدين ومقاتلتهم وتحقيق هدفهم في بسط نفوذهم وسيطرتهم على جميع المغرب الإسلامي، ففي عهد معرف بن عبد الحق، اشتبك المرينيون مع جيش الموحدين الذي كان يقوده " أجرة محمد بن واندن " وانتصروا عليهم بالقرب من مدينة مكناسة غير أن الموحدين يذلوا جهودهم ونشاطهم في محاربة بني مرين فأعدوا لذلك جيشاً ضخماً مؤلفاً من فرسان عرب المشرق والمصامدة وبعض العاصر الرومية والتقى معهم على مقربة من منطقة " أوازفاس " حيث أوقعوا الهزيمة في صفوف المرينيين وتفرق جيشهم إلى فلول منهزمة في منطقة جبال " غياثة " (1).

ويمكن القول، أن الدولة المرينية لم تشرف على نهايتها حتى بسطت سيطرتها من برقة وطرابلس شرقاً إلى منطقة السوس الأقصى غرباً حيث بدأت نذر الضعف والانهيار تدب في كيائها المتسع الأرجاء. ولكن قبل أقول نجمها يمكن الاعتراف المرينيين بالفضل في وقوفهم مع والأندلسيين والغرناطيين ضد تعديات الأسبان القشتاليين واعتدائهم المستمرة على المدن الأندلسية، لذلك وطدوا أنفسهم على مساعدة إخوانهم فعبروا أربع مرات لنجدتهم مع جيوشهم ومعداتهم وأحرزوا النصر على الجيوش المتحالفة من الأسبان القشتاليين:

- أ - في سنة 591 هـ / 1195م العبور الأول في معركة الأرك (2).
ب - في سنة 677 هـ / 1278م العبور الثاني محاصرة اشبيلية في أراضي قشتالة (3).
ج - في سنة 681 هـ / 1282م العبور الثالث (4).
د - في سنة 684 هـ / 1285 م العبور الرابع (5).

(1) المصدر نفسه ج 4 ص 455 - 457.

(2) ابن عذارى، المصدر السابق ص 191

(3) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية ص 160

(4) المقرئ، أزهار الرياض في أخبار عياض ج 1 ص 61

(5) ابن خلدون، المصدر السابق ص 393، ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة ج 1 ص 563.

جرى اشتباك جيوش المرينيين مع المتحالفين في البر والبحر مما أرغم القشتاليين على طلب الصلح وعقد هدنة بين الطرفين فوضع المرينيون شروطهم ومنها عدم الاعتداء على الأندلسيين ومسالمة العرب المسلمين من الغرناطيين⁽¹⁾. واستمرت نجدات بني مرين لإخوانهم والأندلسيين ففي سنة 690 هـ / 1291م وجه الأمير أبو يعقوب المريني أسطولاً لمقاتلة القشتاليين انتصاراً لعرب الأندلس، فتوغل الجيش المغربي إلى شريش ثم اجتاز أحوازا اشبيلية ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء فكان لهذا العمل العسكري أثره لدى القشتاليين، فقد ترك في نفوسهم التوجس والخوف من تكرار مثل هذا الهجوم في المستقبل فخفضوا من ضغوطهم على مملكة غرناطة بل وسعوا إلى محالفة أمراء بني الأحمر فيها. وهكذا وضع بنو مرين أساساً متيناً للتعاون ونصرة العرب المسلمين الأندلسيين وإبعاد الأخطار المحتملة على مملكة غرناطة طوال مدة حكمهم للمغرب وقدموا صورة واضحة للتضامن وتقديم العون من أجل المحافظة على السيادة العربية الإسلامية في بلاد الأندلس حتى نهايات القرن التاسع الهجري بسقوط مملكة غرناطة.

سقوط إمارة بني مرين:

يلاحظ بعد وفاة الأمير أبي الحسن علي بن عثمان المريني، سريان الضعف والاحلال في أجهزة الدولة المرينية ومرافقتها ومواسمتها وذلك نتيجة لتولي بعض الأمراء الذين وصفتهم المصادر بالضعف وعدم الاقتدار وضيق النظرة ومسايرة الشهوات وكثرة النزاعات⁽²⁾، فلم تلبث أن فقدت دولتهم المغرب الأدنى ثم المغرب الأوسط وعادت إلى إطارها وحدودها القديمة، وقد توج استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة سنة 818 هـ / 1415م سقوط المرينيين بل وكان نذيراً ليس فقط لإنهيار دولة بني مرين بل وقوع جميع بلاد المغرب الإسلامي تحت السيطرة

⁽¹⁾ توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة 685 هـ وكان يقود جيش العبور قبل أن يعود إلى المغرب (انظر ابن عذاري، المصدر نفسه ص 196).

⁽²⁾ ابن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص 119.

البرتغالية⁽¹⁾ حيث كان هؤلاء يفتشون عن مناطق نفوذهم في شمال أفريقية بصورة خاصة وهكذا اختتمت الدولة المرينية عهدا بالإقتصار على مدينة فاس⁽²⁾ حتى سنة 956 هـ / 1544م حيث سقطت دولتهم بسقوط هذه المدينة على أيدي قوة من " الأشراف السعديين " .

(1) استولى البرتغاليون وحلفاؤهم من الفرنج على جزء كبير من ساحل المغرب فاحتلوا " آصيلا " سنة 876 هـ / 1471 م وصافى وآزمور وطنجة سنة 879 هـ / 1476 م

(2) حيث فقدت أخيراً مراكش وتافيللت ودرعة والسوس وبلاد الريف.

(2)

الإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

(أ) إمارة بني عبد الواد في المغرب الأوسط "بلاد الجزائر":

(633 – 914 هـ / 1235 – 1508 م)

استغل بنو عبد الواد، وكانوا في الأصل من أمراء القبائل المرحّل التي كانت تجوب صحراء المغرب الأوسط، ضعف الموحدين وعدم سيطرتهم على الحفاظ لكيان دولتهم الشاسعة الأرجاء، للسيطرة على بعض المناطق والحصون القريبة من تلمسان التي كانوا يحكموها باسم الموحدين، بل ازدادوا تمادياً بإعلان استقلالهم في تلمسان واتخاذها عاصمة لهم سنة 624 هـ / 1227 م وذلك بعد أن أطيح تماماً دولة الموحدين والظاهر أن الظروف التي أحاطت ببني عبد الواد مكنتهم من تكوين إمارتهم التي شاء لها أن تلعب دوراً مهماً في تاريخ المنطقة، استمرت ما يقرب من الثلاثة قرون، وإن الاستقرار الذي ساد بلاد المغرب، كان أحد العوامل التي ساعدت بني عبد الواد من تكوين سلطتهم ونفوذهم وفرض أنفسهم فرضاً على سكان سواحل المغرب الأوسط، ثم ما لبثوا أن أصبحوا سادة هذه البلاد وحماتها، وقد لعب يغمراس بن زيّان وكان أحد ولاية الموحدين في تلمسان، دوراً كبيراً في تأسيس إمارة بني عبد الواد وإقامتها، فقد سمح للقبائل المنتمية إليهم وأقاربهم وحلفائهم أن يتركوا الصحراء ويستقروا في سهول وهران، لكن يضعوا أمكاناتهم تحت تصرّف عامل الموحدين، وكان بنو زيّان قد ساهما مساهمة فعالة في الدفاع عن منطقة وهران فقتلوا نظير ذلك بعض الإمتيازات، الأمر الذي أدى في نهاية الأمر إلى استقلاله ومجابهة الإخطار المحيقة به من الشرق ومن الغرب.

ومن الأخطار التي كانت تهدد غمارة بني عبد الواد، مجموعة القبائل العربية المشرقية المنتشرة في وديان الساحل الشمالي للمغرب الأوسط، كما إن بني حفص في تونس هم الآخرون كانوا يشكلون تهديداً دائماً لبني عبد الواد، فقد كان هؤلاء

يحاولون أن يبسطوا نفوذهم على المغرب الأوسط ويزعمون بأنهم "ورثة الموحدين" ومن حقهم أن ينشطوا في هذا المجال. ونتيجة لقوة بني حفص وتأثيراتهم في القبائل المنتشرة في تلك الأصقاع، اضطر يفراس بن زيان، الاعتراف بسيادة الحفصيين على مناطق واسعة في المغرب الأوسط، فيما كان المرينيون يمينون الفرص الساتحة للتدخل في المغرب الأوسط والسعي للاستيلاء عليه رغم أنهم فشلوا في اقتحام أسوار تلمسان المنيعه، وتكررت محاولات المرينيين ضد تلمسان في سنة 737 هـ / 1336 م حيث سار أبو الحسن على بن عثمان إليها وشدد عليها الحصار وأقام معسكراً ثابتاً أمامها ليكون قاعدة لعملياته العسكرية، ولم تلبث محاولات المرينيين إن أسقطت تلمسان بالفعل سنة 738 هـ، فوسعوا نطاق القاعدة العسكرية التي أقاموها أمام المدينة حتى أصبحت تلمسان مدينة كبيرة أطلق عليها اسم " المنصورة " ثم انطلقوا منها ليقضوا على سلطة بني عبد الواد بقتل الأمير ابن أبي تاشفين.

وعلى الرغم من بقاء تلمسان في حوزة بني مرين أكثر من عشر سنوات من تاريخ سقوطها بأيديهم وبقيائها مركزاً لحكومتهم، فإنها خرجت من نفوذهم، حيث استعادها بني عبد الواد سنة 750 هـ / 1349 م ولكن مع ذلك لم يستطيعوا الاحتفاظ بها، إذ سقطت بيد المرينيين سنة 753 هـ / 1352 م ومع ذلك لم يلبث أحد أمراء بني عبد الواد وهو أبو مسلم إبراهيم بن أبي الحسن أن دخلها واستولى بالأمان عليها سنة 761 هـ / 1359 م وعهد بحكمها إلى أحد أحفاده.

ونقرأ خلال هذه الحقبة عن الازدهار الذي أصابته مدينة تلمسان وذلك نتيجة لموقعها الجغرافي ومياهها الجارية وأحاطتها البساتين والجنان، فاستعادت بذلك مجدها القديم وأصبحت مركزاً تجارياً مهماً يقصده تجار العالم الإسلامي ومركزاً للقوافل التي تمر بها من تافيلت والسودان، كما أبنى فيها بنو عبد الواد المساجد والقصور والعمائر والمنشآت التي اتخذت بمثابة المدارس.

وفي نهاية القرن التاسع الهجري، فقدت تلمسان استقلالها على أثر اجتياحها من قبل جيوش بني حفص، حيث تغلب الأمير أبو فارس عبد العزيز بن أحمد

الحفصي على أميرها الواثق بالله. ومنذ سنة 870 هـ / 1465 م تعرضت تلمسان إلى حملات الحفصيين العسكرية حتى نجحوا في هدم أسوارها وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت سلطة بني عبد الواد متماسكة، إلى أن ظهر الأسبان على المسرح السياسي، ففي سنة 914 هـ/ 1508 م سقطت وهران بيد الغزاة الأسبان ومن ثم سقطت الجزائر، وهكذا أسلمت بلاد بني عبد الواد إلى خير الدين بربروسا ومن ثم أحد قراصنة الأتراك لكيلا تقع لقمة سائغة بيد الأسبان، وقد كان ذلك سبباً في دخول الأتراك العثمانيين بلاد المغرب الإسلامي.

(ب) إمارة بني حفص⁽¹⁾ في المغرب الأدنى "تونس"

(625 – 950 هـ / 1227 – 1446 م)

استقل بنو حفص عن كيان دولة الموحدين في عهد أبي زكريا يحيى الحفصي الذي يمكن اعتباره المؤسس الحقيقي لإمارة الحفصيين في تونس حيث استقل بإمارة أفريقية سنة 625 هـ بعد أن عزل أخاه أبا محمد عبد الله بن أبي محمد أبي حفص⁽²⁾ وعلى الرغم من الأحداث الخطيرة التي رافقت قيام إمارتهم، فإنهم حكموا حقبة طويلة بما يقرب من ثلاثة قرون ونصف، أقاموا خلالها علاقات وثيقة مع أهل شرق الأندلس وإشبيلية والمريّة، وقد أرسلوا إلى أبي زكريا يستصرخونه ويستجدون به ضد الأسبان القشتاليين، وكان محمد استجد به الفيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خلف بن قاسم الأنصاري والعلامة الشاعر والمؤرخ أبو عبد الله بن الآبار⁽³⁾ حيث وصل هذا الأخير إلى تونس سنة 635 هـ⁽⁴⁾، فبادر الأمير أبو زكريا الحفصي إلى تجهيز أسطول شحنه بالموّن والسلاح مكون من ثماني

(1) ينتسب الحفصيون إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمرو الهنتاتي من قبيلة هنتاتة أكبر قبائل مسمودة وكان لأبي حفص مكانة سامية في دولة الموحدين.

(2) يبدو أن سبب استقلال أبي زكريا بتونس يرجع إلى ما قام الموحدون من قتل بعض أنصارهم ومريدتهم في مدينة مراكش وبخاصة من هنتاتة وتينمل (د. السيد عبد العزيز ساع، المغرب الكبير ج 2 ص 875).

(3) ابن الأبار الحلة السيرار ج 2 ص 125.

(4) المقرئ، ازدهار الرياض ج 2 ص 590.

عشرة سفينة كبيرة وصغيرة اتجهت إلى بننسيا بصحبة ابن الآبار والوفد الأندلسي⁽¹⁾، وعلى الرغم من عدم وصول هذه كنجدة لأهل المدينة ولكنها ظهرت مدى استجابته الحفصيين لأهل الأندلس ووقوفهم إلى جانبهم في محنتهم وجاء ذلك في كتاب "الجلّة السيرة" لابن الآبار حيث وصفها كشاهد عيان⁽²⁾.

ونتيجة لتوطيد العلاقات بين الحفصيين والأندلسيين فقد تأثرت بلاد المغرب الأدنى "تونس" بعوامل الحضارة الأندلسية، حيث فتح أبو زكريا، أبواب بلاده ومدنه للمهاجرين من أهل الأندلس وخاصة من العلماء والشعراء والفقهاء، وقد بلغ تأثير الأندلس نروته في الإمارة الحفصية في عهد أبي عبد الله المستنصر بالله خليفة أبي زكريا يحيى الهنتاتي، حيث وصف بأنه كان من أعظم بناءة هذه الأسرة وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس من العلماء. وقد ابنتى القصور وأقام البساتين على نسق قصور الأندلس وبساتينها، كما توطدت العلاقات التجارية في عهده بين تونس وبرشلونة ومرسيليا وجنوه وبيزا والبندقية وصقلية وأنشأت الفنادق والمنشآت والمباني بتونس، وبعد وفاة أبي زكريا يحيى الهنتاتي تعاقب على الحكم عدد من الأمراء لم يستطيعوا الاحتفاظ بنفوذ أسرة الحفصيين، مما أدى إلى سريان الضعف والانقسام بين صفوفهم فخرجت بجاية عن طاعتهم واستغل أعداؤهم من المرينيين وبني عبد الواد ذلك فاستطاع الأمير أبو عنان المريني تجريدهم من تونس. ولكن في عهد أبي العباس استعادت إمارة الحفصيين بعض نفوذها، ثم قام ابنه أبو فارس بالإغارة بحراً على مالطة وجربه واستولى على تلمسان، لذلك عرفت دولته جانباً من الازدهار والقوة وتمكن كذلك أن يضم الدويلات المستقلة التي نشأت بعد الفوضى والاضطراب التي حلت بالبلاد بعد وفاة أبي أبي زكريا يحيى ففي سنة 801 هـ/1400 م استولى على إمارة توزر وقنصه وفي سنة 805 هـ/1402 م دخلت جيوشه إلى إمارة بسكرة ونجح في سنة 813 هـ / 1410 م بالاستيلاء على مدينة الجزائر. وفي عهده قدمت السفارات من سائر

(1) م . ن . ص 205 .

(2) كتاب الحلة السيرار ج 2 ص 27، ابن الخطيب، أعمال الأعلام ج 2 ص 273

أنحاء العالم إلى تونس، تهدأه وتخطب مودته ومنها سفارة أمير غرناطة وسفارة فاس وسفارة مصر. وفي سنة 838 هـ / 1434 م توفي أبو فارس بن أبي العباس، فتولى عدد من الأمراء الذين أضعفوا كيان الإمارة حتى سنة 850 هـ / 1446 م حيث استعفى أبو عمرو جميع الاضطرابات وقطع الثوار وعمل على إزالة ما يحول دون ازدهار الإمارة الحفصية، فعقد المعاهدات التجارية مع فرنسا ومصر والأندلس. غير أن هذا الازدهار لم يدم طويلاً فبعد وفاة أبي عمرو وعثمان بن أبي العباس، تمزقت وحدة الإمارة تحت ضربات الغزو الأسباني انتقاماً من الأتراك الذين كانوا قد اتخذوا السواحل التونسية أوكاراً لهم وهكذا كتبت نهاية الإمارة الحفصية بانتشار قوات الأتراك العثمانيين لاستكمال سيطرتهم على جميع بلاد المغرب الإسلامي.

دور المغرب الإسلامي في استقبال واحتضان العرب المسلمين

المهاجرين بعد سقوط غرناطة 897 هـ / 1491 م⁽¹⁾

أتضح أن استيلاء بني مرين على مراكش سنة 668 هـ / 1269 م وإقامة إمارتهم فيها، جعل نشاطهم يتركز في مجالين أولهما بلاد المغرب الأدنى والأوسط ومحاولتهم السيطرة والاحتواء السياسي، وثانيهم نحو بلاد الأندلس ومملكة غرناطة بصورة خاصة وسعيهم على إيجاد أهل الأندلس عامة ومساعدة بني نصر أصحاب غرناطة ضد القشتاليين والأسبان المتربصين بهم، وقد درج بنو مرين على هذه السياسة بعد أن تركز وجودهم في المغرب واستحوذهم على مخلفات دولة الموحدين، ففي عهد الأمير يعقوب بن عبد الحق سنة 668 هـ، خرج بنو مرين بجيش من فاس متجهاً إلى الأندلس فاكثسحوا الفصوص والزروع والبساتين والوديان لتهديد القشتاليين وإشعارهم بقوة حلفائهم من بني نصر⁽²⁾ بل وتركوا فرقاً دائمة في الأندلس للمرابطة على الثغور الأندلسية متفرعة لرد الأسبان القشتاليين وحلفائهم، والظاهر أن موقف المرينيين هذا كان له أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس وعلى مملكة غرناطة، وفي سنة 673 هـ أرسل هذا الأمير جيشاً قوامه خمسة آلاف مقاتل ليقوده الأمير نفسه وعند مدينة استجة، اشتبك مع جيش القشتاليين الذي كان يقوده الدون فوينودي لارا⁽³⁾ حيث هُزم القشتاليون واندحرت جيوشهم.

(1) وهم الذين يرجع نسبهم إلى سعد بن عبادة الأنصاري، أحد كبار الصحابة، ومن رجالهم ورؤسائهم في عهد بني مرين ابن الأحمر وهو: أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي (د. عبد الرحمن على الحجي، التاريخ الأندلسي ص 516)

(2) وهم الذين يرجع نسبهم إلى سعد بن عبادة الأنصاري، أحد كبار الصحابة، ومن رجالهم ورؤسائهم في عهد بني مرين ابن الأحمر وهو: أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي (د. عبد الرحمن على الحجي، التاريخ الأندلسي ص 516)

(3) تطلق عليه المصادر الأندلسية اسم "ذنة أو ذنونة" (ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة ج 1 ص 565، ابن خلدون، العبر ص 370، المقرئ، نفح الطيب ج 1 ص 449)

ولكن بعد سقوط غرناطة سنة 897 هـ / 1491 م، لم يسع الإمارات والدويلات في المغرب الإسلامي أن تحول دون ذلك ولكنها بدأت تستقبل من يضطر على الهجرة وهم أفواج من العرب المسلمين من مختلف المنازع والطبقات منهم العلماء والفقهاء والشعراء وطلبة الفقه والرؤساء والأمراء، وأول من عبر إلى المغرب أبو عبد الله محمد سلطان غرناطة وذلك بعد سقوط مملكته حيث ارتحل مع عياله وأمر بالجواز إلى العدو الأندلسية وأعدت له المراكب حيث ركب معه كثير من المسلمين ونزلوا في مليلة من ريف المغرب ثم ارتحلوا إلى مدينة فاس⁽¹⁾.

ومن العلماء الذين ارتحلوا من الأندلس القاضي الشهير أبو عبد الله بن الأزرقي الذي استقر في تلمسان والفقير الأديب أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي والفقير أبو العباس البقني⁽²⁾، ثم استمرت أفواج العابرين إلى المغرب تتوالى وخصوصاً بعد أن نقض ملوك قشتالة عهودهم ومواثيقهم في الصلح التي أبرمت مع سكان غرناطة واستطالوا عليهم وفرضت عليهم المغارم الثقيلة وأجبروا على الخروج إلى الأرباض والقرى وأخذت منهم أملكهم ومعاقبتهم وانتزعت أسلحتهم⁽³⁾.

وفي سنة 981 هـ / 1573 م أزمع أهل تلمسان والجزائر على تدبير حملة بحرية لمهاجمة (المرسى الكبير) في مياه بلنسية يعاونهم العرب هناك، لذلك بادرت السلطات القشتالية إلى نزع سلاح العرب في بلنسية، وعلى الرغم من فشل هذه الحملة التي استهدفت غنقاز إخوانهم من الاضطهاد والتعسف ولكنها كانت بداية لمحاولات أخرى على هذا الطريق، وقد وضعت الأساس لغارات مستمرة على الثغور والشواطئ الأسبانية لغرض الانتقام للأندلس الشهيدة⁽⁴⁾.

(1) المقرئ، أزهار الرياض في أخبار عياض ج 1 ص 67

(2) م . ن . ص 71 - 72

(3) المقرئ، المصدر نفسه ص 69 - 70

(4) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ص 367

واستغرقت هذه الغارات طوال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، ويشير المقرئ وهو معاصر لهذه الأحداث إلى أن هذه الغارات قد انطلقت من المغرب منتظمة في جيش الأمير ومستهدفة جهاد العدو ومن الأسباب فقال: " أنهم انتظموا في جيش سلطان المغرب وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن " (1).

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج 2 ص 617